عباس محمود العقاد

مع عاهل الجزيرة العربية



منشورات المكتبة العصرية
بيروت - صيدا

عباس محمود العقاد

مع عاهل الجزيرة العربية

منشورات المكتبة العصرية
صيدا - بيروت



صاحب الجلالة المغفور له الملك عبد العزيز آل سعود



صاحب الجلالة المغفور له الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود



صاحب الجلالة

الملك خالد بن عبد العزيز آل سعود المعظم

الإهداء

الى روح العظيم

مؤسس المملكة العربية السعودية
وباعث النهضة في جزيرة العرب
جلالة الملك عبد العزيز آل سعود
ارفع هذه الصفحات التي سجلها قلم المفكر الاسلامي الكبير
الاستاذ عباس محمود العقاد ناثرا فيها ذكرياته وخواطره
بعد زيارته للعاهل الراحل . صفحات يجتمع فيها نمطان
من سمو النفس والمقدرة على البناء .

عامر العقاد

مـا قبل المقدمـة

ضاع ملكه وملك آبائه وشرد من بلاده .. وكان يومها في ريعان شبابه..
لم تهز الهزيمة ايمانه ولم يؤثر الحرمان في تقاليده بان يكرم ضيفه بكـل مـا يستطيع .. حتى قيل انه رهن عباءته وهو في الكويت ليقدم طعاما يليق بضيف زاره فجاة ...

وقد نصح اهل الخبرة والتجربة هذا الشاب ان يقبل الهزيمة ولا يعاند في الامر الواقع ... قالوا له : ان الشجاعة ليست ان تحاول المستحيل وانما هي أن تحاول الممكن .. ولكن الشـاب رفض النصيحة وسار على رأس قوة من نحو اربعين رجلا مؤمنا ليقاتل جيش امارة ورجال قبائل اكثر عـددا واقوى سلاحا .. واصيب اصابات قاتلة في معارك عدة قادها بنفسه .. ولكن الرصاص لم يصب ايمانه بحقه وحق آبائه الضائع بل اضاف اليه اضافات كبيرة جمعت اكثر ارجاء الجزيرة العربية في اطار من الامن والاستقرار والرخاء والوحدة التي فقدتها منذ انتهاء عهد الخلفاء الراشدين الذين كان لعبد العزيز فيهم اسوة حسنة وقدوة سلفية طيبة تمسك بها واسترشد وبنى حكمه على اساسها .

وقد ذاق هذا الرجل العظيم مرارة الجوع والحرمان ومع ذلك لم يتسلل الحقد الى قلبه ثم راى الذهب والفضة تحت قدميه فلم يغيره بريقهما وذاق الهزيمة فلم تضعف عزيمته ثم ذاق النصر فلم يسكر به ..

كان عنيدا مع الاقوياء متواضعا مع الضعفاء ولكنه مع عناده كان يسمع الرأي الاخر فاذا اقتنع به رجع اليه لانه اتخذ من الحق والشريعة اماما وحكما وكان يؤمن ان الاقوياء هم الذين يرجعون عن اخطائهم والضعفاء هم الذين يتمسكون بها .

كان عبد العزيز عدة رجال في رجل واحد .. ولقد صدرت عشرات الكتب بمختلف اللغات تتحدث عن جوانب شخصيته ولا شك ان المكتبات ستستقبل عدة كتب اخرى تتحدث عن تلك الشخصية النادرة ... فان التاريخ الكامل لها لم يكتب بعد ...

وهذا الكتاب يقدم لنا بعض الصور التي التقطها كاتب العبقريات الاسلامية عباس محمود العقاد لعاهل الجزيرة العربية ومؤسس الدولة السعودية وباعث نهضتها الجديدة ومفجر طاقاتها البشرية والمادية فقد عرف العقاد عبد العزيز فلمس جوانب من عبقريته الفطرية التي اجمع مؤرخ شخصيات هذا العصر على انها من اعظم العبقريات السياسية والاصلاحية التي ظهرت فيه .

وقد اثرت شخصية الملك عبد العزيز في العقاد فصور جوانب منها تصويرا صادقا في هذا الكتاب .

عبد الرحمن عـزام

مقدمة *

أمة مؤرخة

يصف الاجتماعيون الأوربيون أمة العرب بأنها أمة تاريخية أو ــ على الاصح ــ أمة مؤرخة .

ولا يعنون بذلك أنهاأمة عريقة في التاريخ ، فهذه حقيقة شائعة لا تحتاج الى وصف خاص من علماء الاجتماع أو علماء الاجناس ، وانما يعنون انها أمة مطبوعة على تسجيل الحوادث وتوريث الابنــاء والروايات من السلف الى الخلف بغير انقطاع في سلسلة الاسناد ، وانك اذا صادفت منها رجلا في عرض الطريق أمكنك أن تعرف منه تاريخ قبيلته وقومه الى زمن بعيد ، أو أن تعرف منه ما لست تعرفه من كل فرد في كل أمة ، ولــو كان لهاتاريخ مدون مذكور .

وهذه مزية « مخصوصة » وليست بالمزية الشائعة كما يبدو لأول وهلة . فان من الامم العريقة أمما تسأل الواحد من أبنائها عن أقرب التواريخ اليه فاذا هو لا يذكرها بغيرالمراجعة والسؤال ، وهذه هي الأمم التي توصف

(*) كان الاستاذ العقاد قد كتب هذه المقدمة لكتاب رحلة الربيع للاستاذ فؤاد شاكر ولماكانت هذه التقدمة تدور حولالروح العربية في الجزيرة راينا ان نعيد نشرها كمقدمة لهذه الدراسة عن الراحل العاهل الكبير الملك عبد العزيز آل سعود . بتصرف

بأنها « حاضرية » مبتوتة أي تعيش فيما حضرها من الزمان ، ولا تعنى كثيرا بما بينها وبين الماضي من الأواصر في حياة الفرد أو حياة الجماعة .

تتجلى هذه الحقيقة في طريقة من الطرائف الممتعة التي رواها لنا الشاعر الاديب صاحب « رحلة الربيع » وهو يبحث عن منزل من المنازل التي ذكرها امروء القيس في معلقته الخالدة حيث يقول :

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها　　　لما نسجتها من جنوب وشمأل

وقد دعاه الى هذا البحث أنه اقترب من محلة تعرف « مرات » وفي جوارها « التوضحية » وعندها غدير مشهور ، وقيل له فيما قيل ، انما هي المقرات التي ذكرها حامل لواء الشعراء في الجاهلية . ولم يستبعد ذلك لأنه كما قال « ليس بكثير على أربعة عشر قرنا أن تلحس قافا واحدة فتحرف الكلمة من مقرات الى مرات وقد لحست ملايين المخلوقات من آدميين وحيوانات » .

إلا أنه آثر السؤال مع ذلك وقص علينا تساؤله ونتائج تحريه فقال : « ... التقينا بأول رجل وقع نظرنا عليه ، فقلت : لا شك أن هذا من أهل القرية . فبدأته السلام ثم قلت له : يا رجل ! أهذه قرية أمرىء القيس الشاعر المعروف ؟.. فتدفق كالبحر الزاخر يدلي الي بمعلومات واسعة حول هذا الموضوع وغيره من المواضيع الادبية والتاريخية المتصلة بهذه القرية. وخلاصة ما ذكره أن هذه بلدة رجل آخر سمي بهذا الاسم غير امرىء القيس المشهور ، وأن الاول تميمي والآخر كندي ، وان امرأ القيس التميمي رجل دميم الخصال هجاه الشعراء وهجوا البلدة لأجله ، ومن هنا نشأ الخلط بين الاسمين ... »

قلت وأنا أقرأ هذه القصة لا جرم يوصف العرب بأنهم أمة مؤرخة

أو أمة تتصل فيها علاقة السند بين ماضيها وحاضرها ، بل لا جرم تكون الرحلة كلها دليلا على هذه الصفة الاجتماعية ، فانه لولا « الروح العربي » قد أحاط بالمؤلف ونفخ من وحيه في قلمه لما ظهر هذا « التاريخ العصري » في حيز الكتابة ، ثم حيز الطباعة . فما تخاله إلا صدى صادقا يردد ما تجاوبت به البيد من أنباء تلك الرحلة في أرجاء الجزيرة العربية ، لأن الاله القدير الذي جعل الرمال سافية لا تبقى على أثر قد جعل سكان الرمال سجلا واعيا لجميع الآثار ، ولا سيما هذه الآثار الكبار ، وهي تروي تاريخ الضيافة الملكية من الحجاز الى نجد ومن نجد الى الحجاز .

على أن الاله القدير قد شاء كذلك أن يكون العالم الاسلامي كله سجلا واعيا لأنباء هذين القطرين الخالدين ، وان يكون سكانهما بالارواح والاذهان أضعاف من سكنوهما بالعيان والجثمان . فمن من قراء العربية لا يحسب بين ساكني الحجاز في عالم الروح والضمير ؟ ومن منهم لا يحسب بين ساكني نجد في عالم العاطفة والخيال ؟ هنالك سطعت أنوار النبوة المحمدية ، وهنا تفجرت ينابيع البلاغة العربية ، فكل من عرف وحي السماء في آيات القرآن ، ووحي الطبيعة في ألسنة الشعراء فقد عاش في نجد والحجاز وشغله الحديث عنهما زمنا ولا يزال يشغله الى الآن .

ولهذا نعتقد ان قراء العربية يطلعون على انباء هذه الرحلة الحجازية النجدية وينطلقون معها في أودية الخيال ليشهدوا قافلة الأمس وقافلة اليوم، ويعجبوا مع الصحراء لركب السيارة والبوق بعد ركب الجمل والحداء . ويطمئنوا الى تطور الزمن حين يستمعون الى الملك العصامي العظامي وهو يقول : « ان بعض المسلمين مع الاسف لم يجدوا طريقة للتقدم في نظرهم الا بتقليد الأوربيين ، ولكنهم لم يقلدوهم فيما ينفع بما كان سبب

قوتهم ومتعتهم بل قلدوهم فيما لا يسوغه دينهم من الأمور الاخرى • فقد مضى عشرات السنين على الذين يدعون الناس في السر والعلن ، بالقول والعمل ، لتقليد الاوربيين • ولكن من منهم عمل الى اليوم ابرة أو صنع طيارة أو اخترع بندقية أو مدفعا ؟ لقد قلدوهم فيما يخالف أمور دينهم واكتفوا من تقليد الاوربيين بذلك ••• »

فالحق اذن أن الناس ليستمعون من هذه الكلمات آية اخرى من آيات « العروبة المؤرخة » أو العروبة التي تتصل فيها الأواصر بين حاضرها وماضيها ، وتتغير مع الزمن ولكنها لا تنقطع عن حقائقها ومعانيها • فالخير كل الخير مرهون بهذه الحكمة العملية الواضحة التي تحفظ لنا خير ما عندها وتعطينا من غيرنا خير ما عندهم : قوام بين القديم والحديث ، فلا يصدنا القديم عن محاسن الحديث ، ولا يصدنا الحديث عن محاسن القديم •

واننا اذ نقدم هذه الدراسة عن رحلة العقاد ـ رحمه الله ـ الى المملكة العربية السعودية وما سجله بقلمه العملاق عن انطباعات في نفسه بعد مقابلة العاهل الراحل جلالة الملك عبد العزيز بن سعود في عام ١٩٤٦ وما رآه وسمعه من صراحته ودوام سهره على شئون شعبه وشئون ضيوفه ، كذلك ما لمسه من السادة الامراء ابنائه النجباء ، وما دار بينه وبينهم من احاديث في التاريخ والأدب خلال الاقامة أو خلال العودة بصحبة والدهم العظيم على متن « المحروسة » يوم زيارته لمصر في ذلك العام • ـ نرجو أن تلقى من عناية الدارسين ما لقيته من أبناء مكة وغيرها من مدن المملكة في تاريخها القديم وتاريخها الحديث فهي حلقة موصولة من حياة « أمة مؤرخة » نرجو أن تظل أبدا في صدر التاريخ بما تبرزه له من عظائم الآثار الى ما شاء الله •

« ان ابن سعود من أولئك الزعماء الذين يراهم المتفرسون المتوسمون فلا يحارون في أسباب زعامتهم وعظمتهم ولا يجــدون انفسهم مضطرين ان يسالوا : لماذا كان هؤلاء زعماء ؟ لان الايمان باستحقاق هؤلاء لمنزلة الزعامة في أقوامهم أسهل كثيرا من الشك في ذلك الاستحقاق . »

العقـــاد

مقتطفات مختارة
من أحاديث وأقوال
الراحل الكبير جلالة الملك عبد العزيز آل سعود

★ انني والله لا أحب الا من أحب الله حبا خالصا من الشرك والبدع ، وأنا والله لا أعمل إلا لأجل ذلك ، ولا يهمني أن أكون ملكا أو فقيرا .

والله ثم والله إني لأفضل أن أكون على رأس جبل ، آكل من عشب الأرض وأعبد الله وحده ، من أن أكون ملكا على سائر الدنيا وما فيها .

★ إنني أفخر لكل من يخدم الاسلام ويخدم المسلمين وأعتز بهم بل أخدمهم وأساعدهم وأؤيدهم ، انني أمقت كل من يحاول الدس على الدين وعلى المسلمين ولو كان من أسمى الناس مقاما وأعلاهم مكانة .

★ إنني أدعو المسلمين جميعا إلى عبادة الله وحده والرجوع للعمل بما كان عليه السلف الصالح ، لأنه لا نجاة للمسلمين إلا بهذا ، وأسأل الله تعالى أن يوفقنا جميعا إلى ما يحبه ويرضاه .

★ إن المسلمين لا يرقون ولا ينهضون بالبهرجة والزخارف ، إن سبيل رقي المسلمين هو التوحيد الخالص والخروج من أسر البدع والضلالات والاعتصام بما جاء في كتاب الله على لسان رسوله الكريم .

★ إن الاسلام هو الوسيلة لسعادة الدنيا والآخرة ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة فلم يمنع الاسلام الناس من السعي في الأرض والعمل على كل ما يرفع شأن الملـة .

★ إن تقدم المسلمين ونهوضهم هو من الأمور التي ما برحنا ندعو إليها إن شاء الله ولا نهوض للمسلمين بغير الرجوع إلى دينهم والتمسك بعقيدتهم الصحيحة ، والاعتصام بحبل الله ، والطريق إلى ذلك واضح معبد لمن أراد سلوكه وهو لإفراد الله سبحانه وتعالى بالتوحيد الخالي من الشرك والبدع ، والعمل بما يأمرنا به الدين لأنه لا فائدة من قول بلا عمل .

★ والله ثم والله ، إن العجوز القابعة في وكرها والتي لا تملك من الثياب إلا الاطمار البالية وهي تعبد الله وحده عبادة خالصة ، هي أحب إلى قلبي من أي انسان بلغ من العظمة والشأن ما بلغ ، اذا كان لا يؤمن بالله ايمانا صادقا خالصا ولا يعمل بما جاء في كتاب الله .

★ أنا لست من رجال القول الذين يرمون اللفظ بغير حساب ، فأنا رجل عملي اذا قلت فعلت ، وعيب علي في ديني وشرفي أن أقول قولا لا أتبعه بالعمل لأن هذا شيء ما اعتدت عليه ولا أحب أن أتعوده ابدا . فاذا كان الذي بيني وبين الله عامرا ، فعسى الذي بيني وبين العالمين خراب .

★ يجب على كل إنسان أن يقول ما في ضميره بصراحة تامة ، وأن لا يخشى في الحق لومة لائم .ويجب أن يصرح كل فرد بما يعتقد فيه

المنفعة لأن مجال البحث والتوفيق والتمحيص يوصل إلى خير النتائج وأحسنها ، فعلى الانسان الاجتهاد ومن الله التوفيق .

★ الناس في رأيي ثلاثة ، واحد منهم من أهل الحق ، وهذا أساويه بنفسي وأفديه بها . وثانيهم من أهل الخير والشر ، وهذا أدعو له بأن الله يعلي خيره على شره ، ويكفينا شره ، والثالث من أهل الشر والعياذ بالله وهذا أسأل الله له الهداية وان يجنبه وغيره شر نفسه ويرشده الى الصواب .

★ اثنتان أحمد الله على واحدة منهما واشكره على الاخرى ، أحمد الله على اني أكره أهل الضلال وعلى كراهة أهل الضلال لي ، وأشكره على محبة أهل الخير لي ومحبتي لهم .

★ قوام الخلق في هذه الدنيا الصدق ، وكل حياة لا ترتكز على الصدق ليس لها قيمة قط ، لأن الصدق يثيب الانسان في حالتي الدنيا والآخرة .

ملامح حياة

« لا جدال في أن الآية التي تتجلى فيها حياة العظماء هي امتـداد الأثر بعد الحياة ، فلا تنتهي آثـار العظيم بانتهاء السنين التي يقضيها في هـذا العالم ، ولا تقف هذه الآثار عند حدود البلاد التي نشأ فيها ، فهي على اختلاف الصفات والاعمال قوة تتخطى حـدود الزمان والمكان ، ولا تزال علما من أعلام الهداية التي يستنير بها بنو الانسان من قومه وغير قومه ، وفي زمنه وغير زمنه ، أعمارا طوالا بعيدة الآماد هي التي نسميها الخلود . »

ذلك مقياس العقاد في تقديره لعظماء التاريخ « فهو يرى أن جوانب العظمة الفردية في بني الانسان خليقة بالتجلة والتقدير . واننا مطالبون بأن نرفع صورهم الى مكان التجلة لأننا في زمان يوجب هذا . اذ أن الاسباب التي تغض من وقار العظمة لم تزل تتكاثر عفوا في بعض الاحيان وقصدا في أحيان اخرى ، حتى اصبحت العظمة في حاجة الى ما يسمى ــ كما يقول العقاد ــ « برد الاعتبار » في لغة القانون ، لأن الانسانية لا تعرف حقا من الحقوق ان لم تعرف حق عظمائها،وان الانسانية كلها ليست بشيء ان كانت العظمة في قديمها أو حديثها ليست بشيء . »

وقد عاب البعض هذا المذهب في كتابة العقاد لسير العظماء . بانـه اشبه بقصائد ثناء ، أي يحفل بجوانب عظمتهم ولا يحفل بما فيهم من العيوب وهو انتقاد يكون له وجه لو كان ثناء العقاد على العظماء لخصال ليست فيهم ، أو انه يثني عليهم دون أن يبين دواعي الثناء على أخلاقهم وأفعالهم .

وهكذا فعل في عبقرياته الاسلامية الخالدة، وفي دراساته وسيره الاخرى التي قدر لاصحابها أن يتناولهم قلم العقاد بالانصاف والتقدير .

يقال ان لكل شيء آيته التي لا تتجلى إلا فيه وآية العظمة في موازين الانصاف أن يعمل الانسان عملا لم يقدر عليه الملايين من قبله . ولا يفهم من هذا القول أن العظيم مطالب بأن يعمل كل شيء ، أو أن يعمل كل ما اراد لأنه لو قيست عظمة الابطال الافذاذ بمقياس كهذا المقياس لما بقي في التاريخ عظيم واحد . فما من بطل يعفي الناس من العمل بعده ، وما من بطل حقق امنيته كلها في حياته ، وإنما البطولة أن ينهض فرد باعباء الالوف وأن ينسى نفسه ليذكر الناسين وينبه الغافلين.

وعلى أساس هذه المقاييس كتب العقاد دراساته المختلفة وبهذه المقاييس في نظره يرتقي العظيم الى الذروة العليا من الانسانية الرحبة فيستحق حقه من أمته وغير أمته ، وقد يكون حقه من أمته متصلا بالمنفعة والأثرة ، أما حقه من غيرها فهو حق الامانة لنفسه ولأبناء نوعه ، ما دامت الثقة بالطبيعة الانسانية شيئا يعنيه . وهذه الثقة في رأي العقاد هي أنفس ما تقتنيه من تراجم العظماء . ويرى العقاد — أيضا — أن تراجم العظماء عبث ان كانت خلاصتها أن العظماء ليسوا بعظماء ، أو ان كتبت تراجمهم لفضح عيوبهم ونقائصهم .

وشخصية صاحب هذه السيرة ونعني به جلالة العاهل الراحل عبد العزيز آل سعود شخصية بينة المعالم واضحة لا تختلط بغيرها فهي تظهر دائما بسمات خاصة فيها . ولا يختلف اثنان في انها من تلك الشخصيات التي يعرف الناس فيها ذلك النمط الصانع للتاريخ ، أولئك الذين تقف شخصياتهم لا تطغي عليها البيئة فتدغمها في غيرها ، وإنما تحتفظ بكيانها

المستقل لأن لها خصائص وعلامات تنجيها من الفناء في الشخصيات الأخرى •

كان علماً مفرداً في صفاته كما كان في بنيانه الوثيق المكين علما مفردا كذلك • فهو طويل القامة • ضخم الجسم سامق البنيان مكينه ، مرفوع الذرى ، وقد ذكر أحد الذين أرخوا لسيرة جلالته آن طوله كان يبلغ ست أقدام وأربع بوصات • فهو إذن من اولئك العرب الممتازين بقوة التركيب ومتانة البناء وطول القامة وضخامة الجسم • له رأس كبير يناسب هذا البناء الشامخ ، وجبين متسع ساطع وحاجبان أسودان يفصل بينهما بلج واضح ، تحتهما عينان صافيتان متألقتان دعجاوان تشعان بالنور في حالة رضاه ، وتتقدان في حالة غضبه وعدم رضاه • أنف أشم وشارب يغطي وفضته ، مفتر الثغر متهلل الوجه حسنه ، تزينه لحية خفيفة ، عريض المنكبين ، شثل الكفين ، جليل المشاش يميل إلى البساطة في كل حياته ، كثير الصمت • أما اذا تكلم أطنب ودل على علم واسع بما يقول أو يتحدث فيه •

روى العقاد عن جلالته أنه حينما ناقشه في مسألة جامعة الدول العربية عام ١٩٤٦ أنه قال له عنها : « انها منار لنا ــ أي للعرب ــ لأنها تصدر في أعمالها عن بحوث مشتركة بين ذوي الرأي والبصيرة يرون في جملتهم ما لا يراه أهل كل بلد على انفراد ، وانها دريئة للدول العربية لأن حجة الدولة التي تحتج بقرار الجامعة قائمة ، وعذرها فيما ترضاه أو تأباه مقبول » •

وذكر صاحب كتاب « ملوك العرب » عنه أنه : « كثيرا ما يقف في حديث مهم لينظر في أمر ظاهره طفيف ، ثم يدخل عليه أحد الخدم أو الكتاب فيقطع عليه الحديث ثانية فينظر في الأمر الثاني ، ثم يعود ــ وهذا ما كان يدهشني جدا ــ إلى الكلمة الاخيرة من حديثه الأول دون

أن يسأل كما هي العادة في مثل هذه الحال عند أكثر الناس : ماذا كنت أقول ؟ لا . ما سمعته مرة ، وكانت أحاديثنا معرضة دائما للتقطيع ، يسأل هذا السؤال . فهو شديد الحافظة ومتيقظ دائما . عليه الصغيرة والكبيرة يقينا . وله اليد المصلحة في الاثنتين »[1] .

ووصفه الاستاذ أحمد عبد الغفور عطار في كتابه عنه فقال :

« إذا وقف المرء تجاهه شعر بضآلته تجاه جسمه الصلب الوثيق الفارع ، وإذا نظر إلى وجهه زادته هيبة غير راعية عن التحديق فيه فيختلس النظر إليه يتملى محياه الباسم وطلعته القوية البارزة ، وتفيض مهابته على مجلسه فلا يطيق أحد الكلام إلا إذا مد له حبل تواضعه وسماحته ، بل إن بعض من يحضرون للسلام عليه يفاجأون بمهابته فما يستطيعون النطق بحرف فيبسم لهم ويهدىء منهم ويستدرجهم إلى البوح بما في أنفسهم ويدنو إليهم ويسألهم عن حالهم حتى يتكلموا ويشعروا كأنهم بمحضر صديق أو أب رحيم ويفارقونه وما يزال في أنفسهم رنين صوته العذب وذكريات عن تواضعه وسماحة نفسه ورجاحة عقله وصفاء قلبه وحسن نيته وطيب سريرته »[٢] .

* * *

يقال أن السنة الخلق أقلام الحق .

كلمة سائغة ليس أصدق منها إن صدقت وهي صدق في كثير من الأحيان ، وهي صدق في جميع الاحيان حينما يرسلها متحدث عن تواضع جلالة الملك الراحل ، عاهل الجزيرة العربية عبد العزيز بن سعود . فان أول

---

(١) ملوك العرب لامين الريحاني الطبعة الثانية بيروت سنة ١٩٢٩ – الجزء الثاني صفحة ٥٢

(٢) صقر الجزيرة لاحمد عبد الغفور عطار الجزء الثاني صفحة ٦٨٦ .

ما يلمسه من يقابله أو يتحدث إليه تواضعه الكبير • فهي خليقة فيه لـم تفقده إياها السلطة ولا بعد الصيت ولا شهادة الأجانب بعبقريته وعظمته ، ولم يخرجه عن التواضع والبساطة هذا الملك الذي يمد أحد ذراعيه على البحر الأحمر والأخرى على الخليج العربي فيضم ما بينهما ، ولم يخرجـه عنهما الغنى والوفرة والقوة ، ذلك لأن ولي الأمر المسلم الصحيح لا تغره الدنيا بزخرفها ولا تغره القوة وسلطانها •

والرحمة خليقة أصيلة مكينة فيه أيضا • وليست عرامته وصرامته في ميادين القتال والصراع بنافية تلك الخليقة لأن الضرورة ــ هنا ــ تفرض عليه الشدة والصرامة فاذا ما زالت الحرب زالت الصرامة لأنــه بـزوال العارض يزول ما بنى عليه • فقد عرف عنه انه لم ينس في مواطن الحرب معاني الرحمة ومشاهدها • فقد كان يأسى أشد الأسى على القتلى من خصومه ويقف واجما تصطرع في نفسه الخوالج والآلام لأنه يرى «أناسا» استلبت أرواحهم الحرب ومزقت أجسادهم السيوف البواتر •

روى أحد مؤرخيه أن جلالته وقف أمام قتلى إحدى مواقعه وكان عددهم كبيرا من جنود خصمه « الحسين » فما أطاق منظرهم وقد جيفت أجسادهم وعبثت بها الرياح • فأطرق محزونا يثب الدمع إلى عينيه بالرغم من جلده •

ورب قائل يقول : كيف يكون هذا والموقف كان خليقا بسرور جلالته لأنه يرى أعداءه قتلى مطروحين ، هذا إلى جانب لذة النصر المؤزر الذي بذل له الروح وغامر من أجله بأعز ما لديه وهي الحياة نفسها • وصحيح في الجملة والتفصيل أنه موقف خليق بأن يبعث السرور إلى نفس الرحيم لأنه هزم من يريدون قتله وسبقهم بسلب أرواحهم ولكنه ليس كذلك عند

ابن سعود • فقد قال والدمع ينحدر على وجنتيه : « ما كان أحرى بأخي « الحسين » ألا يلقي بهؤلاء البؤساء إلى هذا المصير الأليم ويكـــون سبب هلاكهم ، لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم » •

فهذه الكلمة وحدها تكفي في معرض الدلالة على خليقة الرحمـــة فيه ، فهو يحزن على أعدائه لأنهم من بني « الانسان » ويتألم أشد التألم ممن قذفهم إلى المجزرة ليلقوا حتفهم على يديه •

كما كان يدل على خليقة الرحمة فيه أنه كان لا يحب أن يبدأ احـــدا بحرب أو يعتدي على كائن من كان ولو ناله بما يكره لأنه يعرف عاقبة الالتجاء إلى السيف فهو ـــ ما دام كذلك ـــ لن يحمل السيف وهو قـــادر على المسالمة والصبر • أما إذا كان القتال معه ضربة لازب فلا محيص عنها ولا مفر منه لأنه مضطر إليه ، ولا حرج على المضطر في شريعة من الشرائع ولا قانون من القوانين »

يقول الاستاذ أحمد عبد الغفور عطار عن هذه الخليقة في جلالته :

« ليس العرام والصرامة بخلائق أصيلة قوية الأساس في نفس الصقر كخليقة الرحمة وإن كان من لوازم القائد المسئول لاخماد ثورة أو مقاتلة عنيد أو ضمان طاعة » [1] •

وليس معنى هذا كله أن خلائق جلالته الاصيلة كانت وقفا على الرحمة ، فهناك الدهاء وقوة النفس والحلم والعفو عند المقدرة والصراحة والمنطق السليم الذي لا التواء فيه ولا مغالطة ، والزهد والتقوى والصلاح إلى غيرها من الصفات التي لا تجتمع في الزعماء إلا نادرا وهي صفات يجب ان تكون في القائد العظيم المسئول •

---

(١) صقر الجزيرة لاحمد عبد الغفور عطار الجزء الثاني ص ٦٨٨ •

فالدهاء من أدواته اللازمة التي لا غنى لقائد عنها . والدهاء — في منطق النبيل — لا يستدعي المكر والخديعة والغدر لأنه ليس دهاء الضعيف المترصد ، ولكنه دهاء القوي الغلاب . فهو عنده حذق وفطنة ومهارة للوصول إلى مرامه دون أن يساء الى أحد إلا بقدر مـا لا يتم العمـل المنشود إلا به . وهو عند الضعيف مكر وغدر وخديعة واقتناص للغرض واستدراج مسف لينتقم ويدرك طلابه عن هذا السبيل المعوج الممقوت الذي لا سبيل سواه يسلكه لضعفه ، فالدهاء عند النبيل الغلاب فضيلة ، ولكن هذه الفضيلة تستحيل عند الضعيف رذيلة .

كما كان جلالته قوي النفس وهي أيضا من صفاته الخليقة البارزة لأن النفس بغير قوة لا يمكن ان تضمن الغلبة والفوز ، ومتى كانت قوية استطاعت أن تمد كل من يتصل بها بالحيوية والنماء . وقد كان زاهـدا في ملاذ الدنيا لأنه قوي الارادة صبور على الخشونة اكتفاء بالنعيم الموعود وأسوة بالرسول الكريم الذي راودته الجبال بأن تكون له ذهبا فابى .

ولولا قوة النفس لدخلت زخارف الحياة ومحبة ملذاتها إلى نفسه من الباب الذي لا يفر منه الزهد والتقوى والصلاح .

وربما يكون الإنسان قوي النفس والقلب ، ولكنه لا يكون قوي المنطق والأداء ، وقد يكون العكس ، ولكن عاهل الجزيرة رضوان الله عليه جمع القوى كلها في نفسه . فهو جهير الصوت ، خطيب يسعه أن يؤثر في جنوده ورجاله ، قوي المنطق فتملك الاسماع حججه .

أما كرمه وجوده فقد كان مضرب الأمثال . فقد روى الذين أرخوا لسيرة جلالته أنه كان جوادا سمحا لين العريكة سريع النجدة والنخوة ، فقد كان يرى في المال انه حطام الدنيا ، والحطام فان والروح باق خالد .

وقد نصحه أصدقاؤه بالكف عن البذل والسخاء والكرم فقال لهم : « مـا أغنت قارون خزائنه » والمال ـ كالعلم ـ يربو بالانفاق وأي أرباء خير من أن يمحو به عن المحتاجين آلامهم ويأسو كلومهم •

روى عنه انه ذات يوم حينما كان يخرج للنزهة أعطى فقيرا صرة فأخبره السائق أنها صرة الجنيهات لا الريالات الفضية وبها ثلثمائة جنيه ذهبي فنادى السائل فأقبل إليه كاسفا ظنا منه أنه سيستردها فقال له : « أردت أن أهبك الريالات ، وما نويت إلا هذا ! ولكن الله هو الذي وهبك هذا الذهب حيث أخطأت فأعطيتك صرة الجنيهات • إنها ليست هبتي ولكنها هبة الله فخذها واشكر الله وحده عز وجل ، واشتر بهـا نخيلا واعمل ولا تكسل ! »

ويعقب الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار على هذه القصة فيقول : « إن ذلك السائل لا يزال موجودا ، ولكنه أصبح بفضل الله غنيا صاحب نخل وزرع » •

كما روى عن جلالته أنه عندما نشبت الحرب وقلت واردات البلاد من الأزواد والأرزاق خاف على الرعية جشع التجار فرتب لكل فـرد منهم ـ ما عدا الموظف والغني ـ طعامه وذلك من حسابه الخاص ، كما افتتح مراكز تموين حكومية ملأها بمطالب الناس من طعام وشراب ولم يمنع التجار الجشعين من زيادة الاثمان ، بل تركهم احرارا يعملون ما يشاءون ، فمن باع بالثمن الذي يبيع به مركز التموين باع ، وإلا وقفت حركـة البيع والشراء عنده لأن الناس لن يتركوا الرخيص الى الغـالي ، فالتجـار مضطرون إلى البيع أو إلى اغلاق متاجرهم ان أرادوا ، ويباح لكل امرىء أن يشتري ما يريد بدون تحديد للكمية حتى أصبح الخزن عبثا لا فائدة منـــه •

ان أقل ما يقال في عمل جلالته هذا أنه غير معهود في التاريخ بالنسبة لتلك البلاد ولكن الشعب عهده في زمنه • وليس في هذا غرابة في سيرة جلالته التي تلتقي فيها جملة من الصفات الكريمة • وهي صفات شتى لكل منها اسم خاص ومدلول خاص ، ولكن الملتقى واحد بعد هذا المطاف وقبله فهي تتصل ببعضها لسبب أو بأسباب •

إن آية العظمة فيه ان صفة من هذه الصفات لم تطغ على غيرها ، فما كرمه وعطاؤه وسخاؤه بمغط حلمه وعفوه ، وذلك لأن لكل صفة « كوناً » خاصاً • فالكرم والعطاء والسخاء تلتقي بالحلم والعفو أعظم إلتقاء ، لأن من الجود أن تقضي حاجة المحتاج ، وتلبي نداء القاصد ، وما العفو إلا هبة روح وقد يكون غير روح ، وطلقاؤه غير واحد كما تدل على ذلك مواقفه المتعددة في هذا الميدان •

أما عدله فقد كان مزيجا من الرحمة والقسوة ، أو انه عدل ذو طرفين أحدهما الرحمة وثانيهما القسوة • فمن لم يقس بالجناة بالزجر والتأديب والسلامة وضبط الأمور لا يعرف الرحمة بالابرياء والمساكين • فان لم يعمل على ازالة الشر أو الحد من صولته استشرى وتفاقم ولا يمكن صرع الشر إلا بالقوة وقديما قيل إن القوة سبيل العدل والرحمة •

يروى عن جلالته أنه تفقد بعد صلاة الجمعة إبنا له فلم يجده في المسجد ولقيه في البيت وسأله عن سبب تخلفه عن الصلاة فأجاب : بأنه تأخر عن غير قصد فجأة ولم يدركها فرجع ، فأمر بسجنه وسجن خدمه جزاء لئلا يتخلفوا عن الجمعة ويبادروا إليها مرة أخرى •

وهذا تأديب قد يزهد فيه الوالد ، ولكن ابن سعود خرج عن الابوة

هنا إلى الحكومة ، فالأب يعطف على ابنه ويرحمه ويشفق به ، والحكومة لا ابن لها تعطف عليه ، فالمذنب يجازى ولا فرق عند الحق بين الصغير والكبير ، وابن سعود منفذ أمر الشرع فهل يطيق أن يسجن كل مهمل لصلاة الجمعة ويفلت ابنه لعذر مقبول ؟ كلا ، وكذلك فعل بابنه ، فقد أمر بسجنه في السجن العام الذي يزج فيه كل مذنب ، ولبث فيه ثلاثة أيام ، وهي مدة أطول من المدة التي يستحقها تارك الجمعة بدون قصد .

وليس هذا بالحادث الجلل من حوادث العدل ، ولكنه دلاله عليه في سيرة هذا الرجل العظيم .

إن سطور التاريخ الحديث تتحدث عن آل سعود قبل مائتي عام فنعرف منها أنهم ناصروا الدعوة الجديدة إلى التوحيد ، أيام عاد محمد بن عبد الوهاب الى نجد ، ونظر فاذا الناس من حوله لا زاجر لهم من دين أو نظام : أتباع أهواء ، كلٌّ « حرب » لكل . فقال : « ان لم يكن الوازع لهم من سلطانهم ، فليس الوازع من إيمانهم . انهم في خصام فليؤمنوا بدعوة السلام كلٌ أخ لكل » .

وانتشرت الدعوة تؤيدها القوة ، فتكاثر جمع المتدينين وكان لآل سعود من السلطان في ذلك العهد ما كان .

وقد كانت ولادة عبد العزيز في الرياض عاصمة الآباء والاجداد ، فلم يكد يعي حتى سمع السمار يتحدثون عن ملك ذهب ، ودولة طغى عليها عدوان جيرانها . لقد كان آل الرشيد تغلبوا على آل سعود . بل لقد وجد عبد العزيز نفسه محمولا على بعير في رحلة مع أبويه وخاصتهما ، يبرحون الرياض ويضربون في الافاق ، نائين عن أعين آل الرشيد ، يقيمون في ضيافة هذه القبيلة حينا وفي الربع الخالي حينا آخر ، ثم يلقون عصا

التسيار في الكويت ، ويترعرع عبد العزيز في عشرة آل صباح وداهيتهم « مبارك » •

فأبت على عبد العزيز نفسه الوثابة إلا ان يشب • لقد خلق عبد العزيز لغير ما خلق له غيره من أبناء جيله ، إن عليه أن يعيد ملك الآباء وعليه أن يقيم ذلك الملك على دعائم قوية تمر بها الاعاصير وهي شامخة •

استرد الرياض في مغامرة هي اشبه بالاساطير منها بالوقائع ، وانتزع الخرج والحريق والحوطة والافلاج ووادي الدواسر من بين شدقي عدوه •

ومضى يدفع غارات ابن رشيد بيد ، ويؤسس بيده الاخرى قواعد الملك ، وتألب الترك وآل رشيد بعد استيلائه على القصيم فكانت له معهم ملاحم « البكرية » وخرج منها يطارد عدوه حتى رآه صريعا بين يديه •

وعمدت سياسة الترك لضرب سلطان نجد بشريف مكة ، فأمدت هذا بالمال والرجال ، فزحف الى اطراف نجد ، فظفر بسير أطلقه مرغما بعد فترة يسيرة وكانت لا تزال للترك قلاع في الأحساء والقطيف ، فجعل ابن سعود رده على الترك اكتساحها •

ونشبت الحرب العالمية الاولى فدار حديث في إحدى خيام ابن سعود ••• قال السير برسي كوكس : « أتذكر يا طويل العمر ، ما قاسيت من نجدات الترك لعدوك ابن رشيد ؟ • قال : « ما حان لي أن انسى » قال : « ألا ترى ما يراه الناس من تحفز العراق والشام والحجاز للثورة على الترك ؟ » • قال : « أرى » قال : « ألا تكون رايتهم رايتك ، ولك بعد ذلك ملك العرب ، وإن شئت فخلافة الاسلام ؟ » قال : « لا » قال : « ألاتنتهزها فرصة فتنتقم » قال عبد العزيز : « لا •••• لن يقول الناس

ثأر عبد العزيز على دولة تسمى بدولة الخلافة في عهد محنتها » •

وبعد عام أو عامين كان كبار ساسة لندن يقولون : « فشل برسي كوكس في الرياض ونجح لورنس بمكة » •

وتتابعت الحوادث فتنمر آل عائض في عسير ، وقامت للاشراف دولة في الحجاز فتلفت عبد العزيز ، فلم يكن أمر « عسير » بالعسير • وكانت له دولة الحجاز •

خلص الملك لابن سعود في نجد والأحساء والقطيف والحجاز وعسير وتهائم اليمن ، واستطاع أن يضرب بيد من حديد على كل قوة طائشة ، فأخضع العصي وآمن الخائف ، فكان الاستقرار وكان الأمن الذي لـم تألفه تلك الاقطـار •

لكن دور الامتحان كان صعبا، فبدأت الفتنة ترفع رأسها في ثورة بل ثورات ، ثورة في نجد يقوم بها الدويش وابن بجاد وابن حثلين ••• وثورة أخرى في شمال الحجاز يتزعمها ابن رفادة ، وثالثة أدريسية في الجنوب • وهنا حالف التوفيق القائد الموفق فقد ذهب الدويش وصاحباه ومن معهم مع الريح وأما جموع ابن رفادة فقد قيل انه لم يخرج منهم حي ••• واندرست دولة الادارسة • وكان لصداقة الأخوين في صنعـاء وفي الرياض ثمن •• وأي ثمن وقيل انه : « لو كتبت معاهدة لوزان بالقلم الذي كتبت به معاهدة الطائف ما نشبت حرب العالم الثانية » •

هذه صفحات ابن سعود بايجاز •

وعرف عبد العزيز كيف يعيش بعد ذلك •

عاش لطاعة ربه ولرعيته ولأبنائه ولنفسه •

فقد كان يعد نفسه مسئولا عن كل فرد من رعاياه ، وكأنما هو من

أبنائه ، يحب كل ابن من بنيه كأنه لم يرزق بسواه ، ويمتع نفسه بكـل ما أحل خالق الانسان للانسان من متع الحياة .

ابن سعود منشىء عرف كيف يبني !

كلمة صادقة كل الصدق . فقد كان كل حجر في بناء الدولة من صنع يديه ، وكل نظام أخذت به الجزيرة هو من وحي عقله الكبير . وكـل خطوة تقدمت بها في مضمار الحضارة هي من ثمار تجاربه .

سلخ الترك خمسمائة عام في بعض أطراف الجزيرة جاهدين لتحضير آحاد من البدو فلم يفلحوا . وفي بضع سنوات من حكم ابن سعود انقلب العدد الكبير من أهل الخيام والمضارب إلى سكان مستقرين في القـرى والمـدن .

عشرات الآلاف من السنين مرت بالجزيرة قل ان عرفت فيها الطمأنينة في تاريخها الطويل . ولكنها بفضل عبد العزيز أصبحت آمنة .

أربعة وخمسون عاما عاشها في المملكة لم يختلف في يوم منها برنامجه ونظامه إلا لطارىء من طوارىء الزمن .. أربعة وخمسون عاما يتلى بين يديه ساعة معينة كل يوم منها فصل من التفسير وفصل من التاريخ يختم على الأكثر بالمناقشة في أهم ما اشتمل عليه .

إن التاريخ في مجراه سيظل يسجل للعظماء سيرا وتراجم ، ولكـن ستظل صفحة العاهل الكبير جلالة الملك عبد العزيز بن سعود متفردة بين تلك الصفحات بأنه قد نسي نفسه ليذكر قومه . انه الرجل الفرد الذي عمل لهم ما لم يكونوا قادرين على عمله لأنفسهم ، ولا يكاد يساويه ميراث عظيم من عظماء التاريخ الحديث في العالم العربي . وسيظل أمـام المؤرخين عملاقا من عمالقة التاريخ الحقيقيين الذين أسسوا الممالك وأقاموا البنيان على خير ما يقام وشيدوا الدول على احسن ما يكون التشييد .

ظروف الرحلة

لماذا كتب العقاد تلك المقالات ؟! ولماذا سجل تلك الذكريات عن العاهل الراحل ؟!سؤالان جديران بالمناقشة والتفسيرقبل السرد والتفصيل. فقد تناقلت وسائل البرق والإعلام في عام ١٩٤٦ أنباء زيارة العاهل الكبير لمصر . وكان على القائمين في الحكم يومذاك أن يرحبوا بتلك الزيارة الملكية الكريمة .. وكان على الشعب المصري الكريم أن يقيم الزينات ويرفع الأعلام للزائر الكبير . وعلى الفور شكلت لجنة من كبار رجال الدولة والحكم في مصر لتكون في شرف مصاحبته لمصر من ميناء جدة حتى ميناء السويس . وكان العقاد ضمن بعثة الشرف هذه . وفعلا سافر يوم ٢ يناير سنة ١٩٤٦ من ميناء السويس على ظهر الباخرة « المحروسة » ممثلا لمجلس الشيوخ المصري حيث كان عضوا فيه . وكان معه ضمن تلك البعثة مراد محسن واسماعيل تيمور والقائمقام محمد حلمي حسين وكريم ثابت .

وصلت البعثة ميناء جدة في اليوم السابع من يناير وكان في استقبالها معالي الشيخ عبدالله السليمان وزير المالية والشيخ يوسف ياسين وكيل الخارجية وغيرهم من كبار رجال المملكة ثم قصدوا قصر « خزام » العامر وكان في استقبالهم هنالك سمو الأمير منصور وكيل نائب جلالة الملك والاميران محمد وخالد ومعهم لفيف من الوزراء المفوضين ورجال السلك القنصلي من العرب والأجانب . وفي المساء وصلت البعثة إلى مكة المكرمة وهي في ثياب الإحرام للاعتمار والتشرف بعد المناسك بالسلام على جلالة الملك عبد العزيز لدعوته لزيارة مصر .

وقد ذكر العقاد ـ رحمه الله ـ لنا ان الكعبة الشريفة قد فتحت لهم يوم وصولهم فزاروا الحرم الشريف وأدوا الصلاة بعد أن طافوا بالكعبة الشريفة .

وقد صور العقاد شعوره في هذه الزيارة في مقال نشره بمجلة « الرسالة » عقب العودة بعنوان « في الحرم » قال فيه :

« ركبنا البحرونحن لا نعلم على التحقيق أين نلقى صاحب الجلالة الملك عبد العزيز آل سعود ، لأن برنامج الرحلة لا يشير إلى المكان » .

فمن الجائز أن يكون في جدة ، لأنها الميناء الذي ينتقل منه جلالته إلى يخت المحروسة ، ولجلالته قصر منيف في أرباضها هو القصر المعروف بقصر خزام .

ومن الجائز أن يكون في مكة المكرمة ، لأن اليخت يصل إلى جدة قبل سفر جلالته بيومين .

فاذا كان استقبال البعثة الملكية في جدة فلا عمرة ولا احرام ، وإذا كان الاستقبال في مكة المكرمة ، فقد وجبت العمرة ووجب الإحرام .

ولكن كيف السبيل إلى الإحرام ؟ وكيف السبيل إلى خلع المخيط في الشتاء ، وان كان الجو في مكة أدفا من جو القاهرة بدرجات ؟

إنني البس الصوف شتاء ، وصيفا منذ خمس وعشرين سنة ، واذا صح أن « الصوفي » منسوب إلى الصوف ، فليس على ظهر الأرض رجل أحق مني بهذه الصفة ، فكيف السبيل الى التحلل من هذه الصفة التي لصقت بالموصوف ، فلا فكاك منها ولا فرار ؟

جاءنا النبأ في عرض البحر بأن صاحب الجلالة عاهل الجزيرة العربية يستقبلنا في قصره العامر بمكة المكرمة ، فنوينا الفدية ، ونوى أصحابنا

الإحرام ، ولم يبق معي بملابسه غير الاستاذ عوض البحراوي وزير مصر المفوض في المملكة السعودية ، لأن الإحرام لا يلزمه ، وإنما يلزمه أن يطوف بالكعبة عند مغادرة مكة طواف الوداع .

وقد خصصت الحكومة السعودية قصر « الكندرة » بجدة لتبديل الملابس قبل المسير إلى الحرم الشريف . وتولى الاشراف على راحة البعثة ومن معها معالي صاحب المعالي الشيخ يوسف ياسين وزير الدولة ، وصاحب العزة فؤاد شاكر مدير المطبوعات . فلما تهيأ أصحابنا للسفر تحرك الركب بالسيارات ، فكان من نصيبي الركوب في سيارة الوزير المفوض عوض البحراوي ، وهو رجل فاضل عرف أهل البلاد كما عرفه أهلها ، فانعقدت بينه وبينهم صلات المودة والزمالة ، وارتفعت بينهم الكلفة كل الارتفاع فيما عدا المراسم التي تقضي بها المعاملات الدولية ، وقد عبر الطريق مرات فعلمت منه كل ما احتجت إلى علمه من معالمها وأصولها ، ووصلت الى مكة بزاد غير قليل من المعرفة العملية بالحجاز .

هذه جبال مكـــة .

وهـــذا جبل حـــراء .

بلغناه بعد ساعة ونصف ساعة من السير المعتدل في السيارة ومررنا إليه بمناظر كثيرة نرى أمثالها في بلادنا ، ولا سيما بلدي الذي نشأت فيه ، وأعني به أسوان ، أما الجديد كل الجدة على النظر وعلى النفس فهو غار حـــــراء .

هو قمة مرتفعة في جبل ، كأنما بنيت بناء على شكل القبة المستطيلة إلى الأعلى ، ولكنها عسيرة المرتقى لا يبلغها المصعد فيها إلا من شعاب وراء شعاب .

أخبرني من صعدوه أنهم كانوا يعانون شديد العناء من وعورة مرتقاه، وأن القليل من الناس يصمد في صعوده الى نهايته العليا ، حيث كان الرسول عليه السلام يتنسك ويبتهل الى الله •

والحق أن الرؤية غير السماع •

والحق أن ما يلمحه الناظر في نظرة خاطفة قد يعيي الكاتب بوصفه في الصحف والاسفار •

والحق أننا قرأنا ما قرأنا عن الجبل وعن الغار ، ثم نظرنا إليها ، فعلمنا أن القراءة قد تركت الكثير من فراغ النفس لتملأه هذه النظرة العابرة في الطريق •

مررنا به عابرين كما كان سكان البلاد يمرون به غادين رائحين في غفلة عن ذلك الرجل المفرد الذي يأوي إليه ويسكن إلى غاره •

كانوا في غفلة عن ذلك الرجل المتوحد في سبيل التوحيد ، كما كان العالم كله في مثل تلك الغفلة وفي مثل تلك الظلمات •

ولكنها كانت ساعات يرتبط بها تاريخ أحقاب ودهور ، فلما انقضت مدتها لم يبق في الارض المعمورة غافل عن ضيف ذلك الغار ، أو جاهل بآثار تلك الساعات التي كان يقضيها فيه بالليل والنهار •

وحسبك نظرة واحدة إلى الجبل ومرتقاه لتحيط بعض الاحاطة بتلك النوازع المرهوبة التي كانت تنهض بالرسول في صباه إلى ذروة تلك القمة مرات بعد مرات وأياما بعد أيام •

كل مرة من تلك المرات تترجم لنا عن قوة تلك البواعث المحتدمة في نفسه الشريفة ، وترينا كيف بلغت هذه البواعث المحتدمة أن تدفع بالعالم كله في طريق غير طريقه ، وإلى غاية لم تكن له من قبل في حساب ، فلولا

لاعج من الشوق الإلهي ينهض بالروح والجسد نهضة لا تصبر عليها طبيعة البشر لما توالت تلك المصاعد ولا تعاقب ذلك العكوف •

إن اللواعج التي حملت الرسول إلى مرتقى الغار هي السر الروحاني الذي استجاش العالم كله بعد ذلك في حركة دافقة تقتحم السدود وتخترق الاسوار والحدود •

وكل ذلك السيل الجارف إنما تجمع قطرات عند هذه القمة العالية •

كل ذلك كان في هذا المكان •

* * *

عبرنا خاشعين مطرقين ، وسكتنا لأن مهبط الوحي هناك قد ألهمنا السكوت •

مكان آخر عند الكعبة كان له في قلوبنا مثل هذا الخشوع ومثل هذا الرجوع مع الزمن إلى أيام الرسالة وأيام الجهاد •

ذلك هو موقف الدعاء الذي كان الرسول عليه السلام يختار الوقوف فيه كلما طاف بالكعبة ودعا الى الله •

أنت هنا ولا ريب في مقام قام فيه ذلك الرسول الكريم ، ذلك السر السرمدي الذي يتعلق به مقادير التاريخ ومصائر الأمم ومصائر بني الانسان ، ذلك الانسان الذي يقترن اسمه في صلوات الألوف بعد الألوف باسم خالق الكون العظيم •

انت هنا تقف حيث وقف وتدعو حيث دعا وتنظر حيث نظر وتحوم بنفسك حيث حام في اليقظة لا في المنام •

قيل لنا : هنا يستجاب الدعاء

قلنا : نعم ، هنا أخلق مكان أن يستجاب فيه دعاء ، وألهم الله كلا

من الواقفين معنا أن يدعو دعاءه وأن يستجمع في الدنيا والآخرة رجاءه ، وساق إلى لساني هذه الدعوة فدعوت : اللهم أولني ما أريد لي وللناس ، وأجعل الخير كل الخير فيما أريد لي وللناس وما بي من حاجة في الحياة اذا استجيب هذا الدعاء .

منظر ثالث اخذني بجماله في جوار البيت الحرام ، وهو منظر الحمام الآمن الوادع في ذلك المقام .

لا يخشى ولا يفزع ، بل يظل طوال نهاره في طواف على الأرض وطواف في الهواء .

وأعجب ما سمعت ورأيت انه يطوف حول الكعبة ولا يعلو عليها فرادى ولا جماعات .

وقد سمعت بهذه الخاصة في حمام البيت قبل أن أراه ، فلما رأيته في طواف العمرة وطواف الوداع ، تحريت أن اتعقبه في كل مذهب من مذاهب مطاره ، فاذا هو كما سمعت يطوف ولا يتعدى المطاف إلى العبور .

أدب الناس في هذا المقام المهيب نعرف سره ونعرف مصدر الوحي منه إلى القلوب الآدمية .

أما أدب الطير في هذا المقام فسره عند الله .

يبدو أن حمام الحرم هذا كان موضع مناقشة بين العقاد والعاهل الراحل خلال الطريق من جدة إلى ميناء السويس في احدى الجلسات الأربعة التي كان يتشرف الوفد المرافق بالحضور بمجلس جلالته . فقد

---

(1) مجلة الرسالة العدد ٦٥٥ الصادر بتاريخ الاثنين١٧ صفر سنة ١٣٦٥هـ ـ ٢١ يناير سنة ١٩٤٦ م

كان جلالته يلتقي ببعثة الشرف أربع مرات في اليوم خلال الرحلة . الأولى في الصباح والثانية بعد الغداء والثالثة عند العصر ، والرابعة بعد العشاء . هذا عدا مائدته الكريمة التي كان يدعوهم إليها لتناول طعام العشاء أو الغداء . وفي كل مجلس من تلك المجالس روى العقاد لي ان جلالته كان يتحدث في موضوعات حديثا ينم على ما اكتسبه صاحبه في الحياة من تجارب كثيرة ، وما حباه الله به من ذاكرة قوية . وإن جلالته كان يتحدث إليهم بعبارة سهلة خالية من كل تكلف ، فاذا أراد ان يوجه انتباه سامعيه الى نقطة معينة في حديثه توقف عن الكلام لحظة وقال : « نعم » بمعنى أليس كذلك ... وحينئذ يرد السامعون بما يدل على أنهم يستوعبون الحديث فيمضي جلالته . ويضيف العقاد ان جلالته ليس من العظماء الذين يحبون احتكار الحديث في مجالسهم ، فاذا أراد أحد جلسائه أن يبسط رأيا أو يستشهد بواقعة قديمة أو أن يقص قصة مناسبة للمقام ، تركه يفعل ذلك وأصغى إليه بعناية تامة ، ثم يستأنف جلالته حديثه .

وقد عاود العقاد الكتابة عن « حمام الحرم » على صفحات «الرسالة» فكتب يقول :

« اشرت في مقالي السابق عن الرحلة الحجازية الى حمام الحرم فقلت من أعجب ما سمعته ورأيته من شأنه .. أنه يطوف حول الكعبة ولا يعلو عليها فرادى ولا جماعات » .

وهذه خاصة لا بد لها من سبب مفهوم ، ولا بد من استقصائها في جميع أحوالها قبل التيقن منها وقبل تعليلها بالخوارق التي لا تقبل التعليل ، فان الذهن لا يقبل الخارقة إلا إذا ضاقت به علل الطبائع التي اودعها الله في خلقه وتواترت بها المشاهدة في جميع الاحوال ، وبخاصة

حين لا يكون هناك مقتضى من حكم الدين ولا حكم العادة لامتناع الطيران في فضاء الكعبة أو أي فضاء مقدس مصون ، ولا معابة على فضاء السماء في كل مكان أن تحلق فيه الطيور او تعبر به الطائرات .

وقد شغلني ان أتيقن أولا من تطابق الأقوال على اطراد هذه الظاهرة، وأن أجرب حماماً غير حمام الحرم لأرى كيف يطير إذا أطلق في جوانب الكعبة وحده ، وأن أجرب طيرا غير الحمام من القماري أو العصافير أو فصائل اليمام ، لأن الجوارح قد يصرفها النظر الى فرائسها عن تحقيق التجربة بما يفيد الحرية في اختيار جو الطيران ، وخطر لي قول الطائي :

يسقط الطير حيث يلتقط الحب وتغشى منازل الكرماء

ولكن الطير يسقط حيث يلتقط الحب ولا يقصر طيرانه على مواضع التقاطه ، فاذا كان حمام البيت قد تعود أن يلتقط غذاءه في المماشي التي حول الكعبة فليس ثمة ما يمنعه اذا صعد في الجو أن يتجاوز تلك المماشي الى ما جاورها ، وهو قريب من قريب .

وأوصيت بعض رفاقنا أن يراقبوا هذه الظاهرة في زياراتهم المتعددة وهم يزورون البيت متفرقين حسب النوبة التي يفرغون فيها من العمل في اليخت أو الطوافتين[1] . فلما عادوا جميعا كفيت مؤنة التجربة أو التجارب الكثيرة التي كان لا بد لنا منها قبل التيقن من تلك الظاهرة وتعليلها بما يكشفها على جليتها ، لأن ثلاثة منهم اتفقوا على أنهم شاهدوا الحمام يطير أحيانا فوق الكعبة وان لم يكن ذلك مطردا في جميع الأوقات. وممن شاهدوا ذلك امام اليخت الملكي المحروسة وهو شاب مهذب أديب

---

(١) كانت ترافق الباخرة « المحروسة » في رحلتها لميناء جدة ليستقلها الضيف الكبير طوافتان مصريتان .

حسن المعرفة بالدين حسن التفسير لأحكامه وفروضه ، فانه قال إن الحمام يطير فوق الكعبة ولكنهم يلحظون فيما يطير منه عليها شيئا من الضعف والانكسار ، كأنه مريض يلتمس الشفاء ببركة العبور على ذلك المقام ، وهذا وحده يبطل ما ذهبوا إليه من تلك الملاحظة •• لأن طالب البركة لا يلتمسها بما يخالف حرمة المكان فيما جرى عليه عرفه أو عرف بداهتــه الفطرية ، فان كان طير البيت يتجنب الطيران فوق الكعبة تقديسا لها كما يتخيلون فليس من شأنه أن يلتمس البركة بما يخالف التقديس •

وقد أصبحت الظاهرة معقولة بعد ما سمعته من تلك المشاهــدات بغير خارقة أو التجاء الى اغراب •

حتى ندرة الطيران فوق الكعبة لا تستعصي على التفسير الموافــق للعادات والمشاهدات ، فان الحمام الأليف يجتمع الى أسرابه في ملاقط الحب ، ولكنه لا يطير أسرابا كالفصائل البرية من نوعه حين تهاجر مــن مكان الى مكان • فاذا جاوز الحمام الأليف مساقط أسرابه فانما يطير زوجين زوجين أو فردا فردا في التماس أليفه الذي يغيب عن نظره وسط الاسراب ، وهذه العادة خليقة بأن تفسر لنا ندرة الطيران على بعد مــن المماشي التي يتجمع فيها الحمام كما تفسر لنا بطء حركة الطائر الذي يخرج على الطريق في بحثه واستطلاعه ، لأنه لا ينوي الطيران الى بعيد حيث يعبر فضاء الكعبة لينظر حولها الى أليفه المفقود •

على أن جمال المعنى الذي يتمثل في حمام الحرم لا ينقص ذرة بطيرانه هنا أو طيرانه هناك ، لأن معناه الجميل هو الأمن في حماية الايمان لا في حماية الحراس أو حماية الأبراج والسدود • فهذا أضعف الطير يــراه الجائع والطامع ولا يمسه بسوء ، وهو يطمئن إلى هذا الأمن بطبعه وان

لم يفهمه بعقل فيه يفهم أمثال هذه الأمور ، فلا يجفل من الانسان ولا تراه يطير منه ألا طيران الدلال واللعب لا طيران الفزع والاضطراب » •

ثم ختم العقاد مقاله هذا عن « حمام الحرم » بقوله :

« ولسنا نختم هذا المقال قبل ان نستوفي سيرة الحمام كما عرضت خلال الزيارة الحجازية إما بمكة أو خلال الطريق » •

فقد كان الحمـــام ذات عشاء من بعض صحاف المائدة عـــلى اليخت « المحروسة » أثناء عودته الأولى من جدة الى السويس ، فعلمنا أن جلالة الملك عبد العزيز لا يأكل منه ولا من السمك على اختلافه إلا في النـــادر القليـــــل •

وأراد صاحب السعادة مراد محسن « باشا » أن يوفق بين رغبة الملك عنه ورأي بعض الفقهاء في تحريمه ، فقال : إن أناسا من المتشددين يحرمون أكل الحمام الذي يربى في بروج الحقول والغيطان •

فصمت جلالة الملك وتردد ثم سأله : ولم يحرمونه ؟

قال مراد « باشا » : لأنهم يتركونه يأكل من مال غيرهم ولا يطعمونه من عندهم ، فحرمه أولئك الفقهاء كما يحرمون مال « الغير » المأخوذ بغير علم من أصحابه •

ولكن جلالة الملك ظل على تردده والتفت إلى أخيه صاحب السمـــو عبدالله بن عبد الرحمن كمن يستفسر رأيه في التحريم •

فقال سمو الأمير : لا حرج في أكله وما أرى وجها لتحريمه ولا قولا يعتد به في ذلك ، وانما حكمه حكم العصافير التي تأوي إلى أشجار الناس وتأكل من حيث أصابت الطعام •

وأطرف من هذا أن رئيسا من رؤساء الحكومة السعوديـــة سأل

الباشا : أهم يحرمون من الحمام الـ Pigeon أو الـ Dove turtle ؟ لأن الأول يأوي الى البيون والثاني قلما يأوي اليها وان عرفت الامم القديمة استئناسه في بعض البلدان .

فكان هذا السؤال مما لم يخطر على البال ، قبل الاستدلال على الحرام والحلال[1] .

وذكر العقاد أن جلالة الملك عبد العزيز لا يغفل الفكاهة في بعض أحاديثه الخاصة ، وهذه آية من آيات العظمة الانسانية كما يراها العقاد . فالعظيم الذي لا يطرب للفكاهة ليس بعظيم . وقد سجل العقاد هذا الجانب في شخص العاهل الراحل في مقاله الذي كتبه عقب الزيارة الملكية الكريمة لمصر على صفحات مجلة « الكتاب » تحت عنوان : « في جو العروبة مع عاهل الجزيرة العربية » بدأه بقوله :

« تحدثنا الفكاهة المصرية عن حاكم جاهل من حكام القرون الوسطى سمع مصريا يقول : النبي عربي ! وكان هو تركيا فأخذته عزة العصبية وصاح فيه : نبي عربي ولكن تركي ! »

ذكرت هذه الفكاهة المصرية في ليلتنا الأولى بيخت المحروسة على متن البحر الأحمر ، وكنا نتهيبه لأننا لا نطيق دوار البحر وإن كنا قليلا ما نشعر بالدوار في الهواء ، ولكن الله بارك في الرحلة من بدايتها إلى نهايتها ، فركبنا البحر شتاء كأننا نركب النيل في أيام الصفو والهدوء ، وكانت السماء في الليلة الأولى على الخصوص صافية مصحية لا تحجب عنا ذخيرة واحدة من ذخائرها الكثيرة ، ولم تكن الليلة من الليالي القمراء ،

---

(1) مجلة « الرسالة » العدد ٦٥٩ الصادر الاثنين ١٦ ربيع الاول ، ١٨ فبراير سنة ١٩٤٦ م .

فعرضت علينا السماء كل ما وسعت من جواريها وثوابتها على السواء ، ولم تدع عندها من نجم بعيد أو قريب تستره في الخفاء • وصعدنا إلى سطح اليخت الأعلى عند مرقب الريان لنتملى بأعيننا ونفوسنا هذا المنظر الجميل ، كأننا نرتفع من الماء إلى الآفاق العلوية ، ونعجب لقول القائل : أين الماء من السماء ؟ لأن الانسان في الماء أقرب ما يكون إلى السموات والافلاك ، فهي الدليل الذي يستقبله هناك حيث يسير •

وكان اليخت في قيادة البحري الكبير صاحب السعادة أمير البحر «سالم البدن» وهو من أبناء البحر المعرقين ، اذا صح هذا التعبير لأنه ينتمي إلى أسرة تقدمه فيها الآباء والأجداد الى قيادة السفن الكبيرة منذ مئات السنين ، وقد تعلم فنون صناعته الدقيقة ، ومنها الفلك والظواهر الجوية وأحياء البحار المختلفة ، فرأيناه ــ كما قلنا له ــ يعلم من طرق السماء وطرق البحار فوق ما يعلم من طرق القاهرة والاسكندرية •

وقد كانت الفرصة في تلك الليلة سانحة لنستمع إليه وهو يشرح لنا مواقع النجوم الثوابت ومواقع الكواكب السيارة التي تظهر على الأفق في ذلك المساء ، وشفع ذلك ببيان الاساليب العلمية التي ينتفع بها لتحقيق مكان السفينة من رؤية تلك النجوم والسيارات أو من المقابلة بين زواياها ومواقعها من السمت والأفق في ساعات الليل : هذه الجوزاء ، وهذا النطاق ، وهذه المنطقة ، وهذا النظام ، وكلها على ما نذكر تعرف في اللغات الأوروبية بألفاظها العربية فتقولون : Almilam و Mintaka و AL nitak ويسمون عاتق الثريا otik ويسمون السرة من مجموعة السلسلة Sirrah وغير ذلك كثير يطول بناء احصاؤه في هذا المقام •

خطرت لي تلك الفكاهة المصرية التي أشرنا اليها في مطلع هذا المقال

وأنا أنظر إلى النجوم والكواكب التي يعرفها الشرقيون والغربيون بأسمائها في لغة الضاد • فقلت : إن السماء عربية أيها الاخوان ! ولو جرينا على طريقة بعض الاثريين ووجدنا مدينة محفوظة المعالم بأمثال تلك الأسماء لما ترددنا في نسبتها على وجه من الوجوه إلى قوم من أبناء يعرب وقحطان •

السماء عربية •••

والبحر الذي نحن عليه ماذا يكون ؟

إن جو العروبة قد غمرنا منذ خطوات الرحلة الأولى فتعودنا ان نلتمس العلاقة بينه وبين كل ما رأيناه وسمعناه ، وقد عرفنا مكان السماء من العروبة ، فبقي أن نعرف منها مكان الماء ، ولم نقل كما قال الأسبقون وأين الماء من السماء ؟••

وجزى الله أصحابنا اللغويين من أصحاب التمحل والتأويل ••• لأنهم لا يضيقون بنسبة شيء إلى العربية ولو كان بينه وبينها ما بين الماء والسماء ••• !

فلا تنس أن البحر الأحمر يدعي ببحر القلزم ، وإن القلزمة على قول أصحابنا اللغويين المتأولين مقلوبة من الزلقمة وهي الابتلاع من الزلقوم أو الحلقوم •• قالوا : ولعله سمى بذلك لانه ابتلع فرعون وجنوده وهم يطاردون موسى الكليم •

ولكن أصحابنا اللغويين هؤلاء ينسون مدينة « كليزما » التي كانت على مقربة من السويس قبل أن ينحسر البحر عن موقع السويس الجديد • وينسون أن البحر قد استمد اسمه من هذه المدينة فسمي ببحر كليزما وصحف إلى بحر « القلزم » على الألسنة العربية ، ثم استعير هذا الاسم للبئر الغزيرة ، فعرفت في العربية باسم القليذم والقليدم وقال شاعرهم في بعض هذه الآثار :

إن لنا قليذما قذوما يزيده مخج الدلا جموما

فحسب أصحابنا اللغويين اذن من العلاقة بين هذا البحر وبين العروبة أنه البحر الذي احيطت شواطئه جميعا بمعاشر الناطقين بالضاد ، وأنهم قلدوه بعد ذلك اسما عربيا موصوفا بالحمرة فقالوا : إنه « البحر الأحمر » لما يبدو عليه من احمرار اللون من أثر الشعاب الحمراء التي فيه والجبال الحمراء التي عليه ، ولا سيما عند مدخله في خليجي العقبة والسويس .

ولقد كان جو العربية يغمر الرفقة جميعا في الإياب كما غمرهم في الذهاب . فلم نجتمع قط في مجلس على متن اليخت ألا عرضت فيه مسألة من مسائل العربية أو مسألة من مسائل العروبة منذ نشأتها الأولى واتفق أن سأل : لم سمي العرب عربا على ألسنتهم وألسنة غيرهم ؟

واتفق أنني سئلت هذا السؤال ونقلت محطة الاذاعة في الشرق الأدنى جوابي عليه قبل سفري إلى الحجاز وخلاصته أن كلمة « العرب » مأخوذة من كلمة الغرب بحرف الغين وهو حرف ضعيف في اللغات السامية غير العربية ، فكان سكان ما بين النهرين ينظرون إلى الشرق ويسمون اليمن يمنا لأنها على يمينهم ، والشام شمالا لأنها على شمالهم ، والصحراء الغربية غربا لأنها في الجهة الغربية من بلادهم ، وتمت بذلك مواقع الجهات الأربع في نظر الساميين المقيمين بين النهرين .

فلما سئل هذا السؤال أصغيت إلى رأي الرحالة البحاثة الاستاذ فلبى فسرني أنه يطابق كل المطابقة ما اعتمدته بين مختلف الآراء ، وزاد عليه الاستاذ فلبى انه يرد كلمة أوربة إلى هذا المصدر لأنها غربية ، وهو رأي له قيمته الراجحة لما عرف من اشتغال الاستاذ بهذه المباحث واطلاعه على مراجعها النادرة في الأوراق والحجارة المكتوبة .

وهنا اختلف رأي الاستاذ فلبي ورأى الأمير العالم عبدالله بن عبد الرحمن ــ أخي جلالة الملك عبد العزيز ــ كل الاختلاف ، والامير عبدالله كما هو مشهور عنه أعلم الاخوان النجديين بالثقافة الاسلامية والتواريخ العربية ، ويقول عنه جلالة أخيه كلما استطرد الحديث إلى مسألة من مسائل الفقه أو العلم متواضعا صريحا في تواضعه الجميل : إن الحروب شغلتني عن التبحر في العلوم والتوسع في الدراسة ، أما الذي استوفي نصيبه منها فهو هذا ... ويشير إلى سمو الأمير حيث كان في مجلسه بجـــواره .

فلما عرضت الاشارة إلى الحجارة المكتوبة شك صاحب السمو في قيمتها التاريخية ، وقال : إنها قابلة للزيف وسوء التفسير ، واستشهد بحجر مكتوب تنسب الكتابة التي عليه لعبدالله بن مسعود رضي الله عنه وهي نسبة مقطوع ببطلانها ، وكان من رأيي أن هذه الحجارة قيمة في الدلالة التاريخية على شريطة واحدة : وهي ان تقترن بغيرها من الدلائل وأن تتفق في مجموع دلائلها فلا تتناقض ولا تتضارب . ولو شئت أن أذهب إلى بطلانها معتمدا على بطلان القول بانتماء السماء الى الناطقين بالضاد كما يطلق على معالمها من لغاتهم لذكرت ذلك في هذا السياق ، ولكن القياس هنا قياس مع الفارق كما لا يخفى لأن صعود العرب الى الكواكب أمر نستطيع أن نشك فيه ، ولكننا لا نشك في نزولهم القديم بتلك المنازل التي عثر فيها الاستاذ فلبي على ألوف الحجارة المكتوبة ، ثم قابل بينهـا وبين ما عنده من الأسانيد الأخرى .

وسئل عن الأصل في اسم مكة فقيل كما قال الأصمعي : انها من تمككت المخ اذا استخرجته لأنها تمك الفاجر عنها ، أو أنها « بكة » لأن

الناس يبك بعضهم بعضا فيها ، أي يتدافعون ويتزاحمون ، ومـن ذلك قول الشاعر :

اذا الشريب أخذته أكه فخلـه حتى يبك بكه

ومن المعلوم أن القرآن الكريم ذكرها بأسماء ثلاثة ، وهي مكة وبكة وأم القرى ، وليس أصل الاسم القديم بالمعروف على وجه التحقيق .

قال الاستاذ فلبي : أنه لا يعرف أصل هذه التسمية ، ولكنه لا يشك في وجودها منذ عهد إبراهيم عليه السلام .

وقلت مصداق ذلـك انهـا وردت في كتاب بطليموس الجغـرافي وسماها Macoraba ولعله مزج بين اسم مكة واسم سكانها العرب بهـذا التركيب[1] .

ذلك مثل من الجو التاريخي أو الجو اللغوي الذي كان يحيط بنا في رحلتنا إلى الحجاز بحراً وبرا وفي الذهاب وفي الإياب .

ولكننا اشتملنا على جو العروبة من جميع نواحيه حين دار الكلام على الجامعة العربية في مجلس العاهل العظيم جلالة الملك عبد العزيز ، لأن جلالته ولا ريب ركن من أثبت أركان هذه الجامعة ، وسند مـن أعظـم أسنادها ، فاذا تكلم عنها فرأيه فيها يقوم بأقوم الأوزان ويناط به أقوى الرجاء في مصيرها .

وجلالته يؤمن بلزوم الجامعة ، ويعتقد أن كرامة الشعوب العربية جميعا مرهونة ببقائها ونجاحها . ويسميها منارا ودريئة لكل دولة عربية تشترك فيها .. »[2]

---

(١) (مطلع النور للعقاد الطبعة الثانية صفحة ١٧٩ ـ ١٨٠)

(٢) مجلة الكتاب السنة الاولى الجزء الرابع صفحة ١٣٦٥ ـ فبراير سنة ١٩٤٦ صفحة ٤٥٠ وما بعدها . مقال العقاد .

وللعقاد مقال آخر عن رحلته مع العاهل الكبير نشره على صفحات مجلة « المصور » تحت عنوان « مع الملك عبد العزيز في البحر » .

« إذا عرفت الملك عبد العزيز ثلاثة أيام فكأنك قد عرفته ثلاث سنوات، أو لازمته في أطول الأوقات .

لأن هذا الرجل العظيم مطبوع على الصراحة ووضوح المزاج ، لم تشتمل نفسه القوية على جانب من جوانب الغموض التي يحدث منها اختلاف الحالات وتناقض العادات . فهو في أخلاقه وأعماله ومألوفاته يمضي على وتيرة واحدة ، ولا يواجه عارفيه في حالتي رضاه او غضبه بخليقة لم تكن لهم في الحسبان .

وأول ما يدهشك من منظره قوة النفس والعقل والحس على السواء. وهو الآن يناهز السابعة والستين ، ويحتفظ بجميع أسنانه كما يحتفظ بقوة عضلية لا تتوافر لكثيرين في سن العشرين أو الثلاثين .

فجلالته منذ الصبا لا يميل إلى الاكثار من ألوان الطعام ، ولا يحب الدسم ولا الحلوى ، ويقصر غذاءه في معظم الوجبات على الأرز واللحم غير ناضج كل النضج ويحب من الخضر « البامية » على الخصوص ، ولكنه يكتفي منها بمرقها وقلما يصيب من حباتها ، وقد يشرب قليلا من الماء على الطعام يحمله خادمه الأمين « مرجان » في كوب طويل ويقف به وراء جلالته ما دام على المائدة . ويتفضل جلالته فيناول الكوب من يختصهم من ضيوفه بالحفاوة والإكرام .

أخبرنا جلالته انه منذ عشر سنين[1] لم يشرب ماء من غير عين « الجعرانة » في الحجاز وعين « البديعة » في نجد . وقد شربنا من مائهما

---

(١) أي منذ عام ١٩٣٦ لان الزيارة كانت في يناير ١٩٤٦ كما هو معروف .

فاذا هو ماء صاف سائغ المذاق ، ونرجح أنه يحتـوي بعض الخصائص المعدنية التي تساعد على هضم الطعام •

وربما استغنى جلالته عن شرب الماء بشرب اللبن المخيض بعد الغذاء أو بعد العشاء •• فيطلبه جلالته أحيانا ويتناول منه جرعات ، ويأمر بـه لمن حوله من الضيوف •• وهو غذاء طيب الطعم مفيد للجسم ، قال الطبيب العالمي المشهور « منشينكوف » إنه من أفضل الاغذية لتطهير الجهاز الهضمي ، وذكر ان أمم البلقان تطول فيها الأعمار لمواظبتهم عليه •

وجلالته يبكر بالافطار ، ويأمر بالغذاء في الساعة الثانية عشرة ظهرا ، ولا يتأخر عشاؤه عن الساعة السادسة في المساء •

ومواعيده في النوم واليقظة منتظمة في جميع المواسم والأوقـات ، فيستيقظ قبل الفجر ويقضي نحو ساعة في التهجد وقراءة القرآن ، ويصلي الفجر حاضرا ، ثم يستقبل بعض خاصته لاطلاعه على مهام الأمور التي تتطلب التعجيل ، ثم يغفى قليلا ويخرج للناس •

ومن عاداته بعد العشاء أن يصغي إلى فصول من كتـب التفسير والحديث ، أو كتب الأدب والتاريخ ، ثم تتلى عليه أخبار الاذاعة التي يتلقاها الموظف المنوط بها من أهم المحطات العربية والشرقية ، فيعقب عليها أحيانا تعقيبا موجزا يدل على بعد النظر وتتبع الأحوال السياسية في مشارق الأرض ومغاربها •

والملك عبد العزيز محدث طلق الحديث يرسل أحاديثه على السجية بغير كلفة ويعرب عن رأيه الصراح بغير مداراة • ومن صراحته المستحبة أنه يحث على الاقتداء بالأوربيين في الأمور النافعة والعلوم الحديثة ، وفي المجال السياسي أيضا ، ويقول : انهم يمكرون ونحن أمكر منهم « ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين ! »

وتدور أحاديث جلالته على الذكريات التاريخية والمواعظ الدينية والتعقيب على الحوادث الهامة والمسائل العالمية ، ويستشهد بالآيات القرآنية في مواضعها ، ويروي الأحاديث النبوية في مناسباتها ، وقد يروي الأبيات من الشعر ويسوق العبر من النوادر والأمثال .

كان جلالته يصف لنا ربيع نجد وجمال الوهاد والروابي في أيامه ، ويقول إن الازهار والرياض كانت تفرش الأرض في تلك الأيام على مسافات طوال حتى ليحسب العابر بها أنه في دكان عطار تنفحه بمختلف العطور ، ولا سيما بعد نزول القطر ، ثم قال وهو يلتفت إلينا :

انه صبا نجد ورباه تغنى بهما الشعراء من قديم مشيرا الى قول ابن الدمينة :

ألا يا صبا نجدمتى هجت من نجد   لقد زادني مسراك وجدا على وجد

وقول الاموي:

ألا يا حبذا نفحات نجد   وريا روضه بعد القطار

* * *

ولما مثل رجال البعثة وكبار موظفي « المحروسة » بين يدي جلالته عقب تشريفه اليخت قال لهم إن الحديث يهون الطريق ثم قال : أتعرفون قصة « حق وطبقة » .

إن حقا هذا كان فتى يصاحب شيخا في سفر طويل . فقال للشيخ في أول الطريق : أتحملني أم أحملك ، فلم يفهم الشيخ مراده وقال في نفسه : ما هذا الفتى إلا مخبول . وما حاجته إلى حملي أو حمله وكلانا يمتطي ذلوله ويحمل زاده ، ولم يجاوزا غير قليل حتى عبرا بقوم يزرعون أرضا لهم فسأل الفتى الشيخ : أتراهم يزرعون لأنفسهم أم يزرعون لغيرهم ؟ فصح

عند الشيخ أن الفتى مخبول ما في خباله ريب ، يرى قوما يزرعون بأيديهم في ارضهم ثم يسأل : أيزرعون لانفسهم أم يزرعون لاخرين ؟و كانت ثالثة الأثافي انهم عبروا بجنازة تشيع ميتا في نعشه ، فعاد الفتى إلى أسئلتـــه الغريبة وقال للشيخ : أميت هذا الذي يحملونه أم حي لا يموت ؟ فما بقيت في نفس الشيخ ذرة من الشك في جنونه ، ودخل إلى منزل وفيه بنيته « طبقة » فأعاد عليها حديث الفتى وهو يتهم عقله لتعرفه فتعامله معاملة المجانين ... قالت « طبقة » : ما هذا الفتى بمجنون يا أبتاه ولكنه ذكي بالغ الذكاء وإنما سألك أتحملني أم أحملك وهو يعني ان تحدثه أو يحدثك فيهون عليكما تعب الطريق . وسألك عن الزرع ألأهله هو أم لغير أهله وهو يعني الديون التي تذهب بثمرات الزراعين والعاملين ، وسألك عن الميت وهو يعني بالحياة الذكرى والذرية . فاذا ذهب الرجل دون ان يذكر بحسبه أو ذرية صالحة فقدمات وانقضى . وإلا فهو في عداد الاحياء .

وقد كنت أود أن تتهيأ الفرصة لنسمع الى جلالته العظيم وهو يتحدث عن ذكرياته في أيام الجهاد وعن الجامعة العربية وما يقدر لها من التوفيق ، فأسعدنا الحظ وظفرنا بالحديث في الموضوعين . إذ سنحت هذه الفرصة يوم الاحتفال بعيد جلوسه . فقص علينا جلالته كيف استرد الرياض بنحو أربعين رجلا منهم ستة يقتحم بهم الأسوار تحت ظلام الليل ، وكيف ودعه والده وهو يقول له انه « مهبل » أو مجنون !

قال زميلنا الاستاذ كريم ثابت : وماذا كان رأي والدكم يا صاحب الجلالة بعد فتح الرياض ؟

فابتسم جلالته وقال وقد بدا على وجهه التأثر والحنان : « رحمة الله على والدي لقد كان يعاملني كأنني أنا الوالد وهو الولد . وما رأيت قط

معاملة كهذه بين الآباء والأبناء أو بين الأخوة والاقربين .

وقد ألقى أديب العربية وكاتبها الأكبر وشاعرها العظيم الأستاذ عباس محمود العقاد هذه القصيدة بين يدي الملك عبد العزيز آل سعود في اليخت الملكي « المحروسة » يوم ذكرى جلوس جلالته وذلك في يوم ٥ صفر ١٣٦٥ (٩ يناير ١٩٤٦) وقوبلت بالإعجاب البالغ والاستحسان الذي لا مزيد عليه والتصفيق الذي لاحد له :

أسد العرين يخوض غيل الماء	يا بحر راضك قاهر الصحراء
حياه باديها وحاضرها معا	فأغنم تحيته يومه الوضاء
يوم من البشرى يردد ذكره	ركب السفين وجيرة البيداء

* * *

عش يا طويل العمر عيش معمر	تحيا به أمم من الأحياء
ماخص طالعك الرياض بيمنه	بل فاض من عمم على الأرجاء
حق المواطن حين يذكر عهده	في الحمد والتبريك حق سواء
لا غرو نذكره ونهتف باسمه	في هذه الآفاق والأجواء

* * *

إن الذي غمر المليك بفضله	ساق البحار إليه في البشراء
لم يقترن بالبحر عيد جلوسه	إلا لعمر زاخر ورخاء
وإذا بـه عبد العزيز بطلعة	كالبدر بين كواكب الأمراء
وأرى السماء تأملت مرآتهـا	في الماء فانطبعت على الخضراء
أرض النبوة حين تم فخارها	خلعت عوارفها على الدأماء

* * *

ملك أناف على العقول بعزمة	وأتم ذاك بما يراه الرائي

جمع المهابة في العيون وفي النهى — وسما بمجـــد أبوة وإباء
يرعاه بارئه ويحرس ركبه — في كل أرض تحت كل سماء
الشرق والإسلام قد سعدا بن — يعـــلو بآلهما إلى الجوزاء
في ظل فاروق وظل صديقه — عبـــد العزيز يتم كل رجاء

وعلى قدر توقيره وحنانه لذكرى والده رحمه الله رأينا آيات العطف والمحبة على ملامح وجهه كلما نظر إلى أصحاب السمو أبنائه النجباء ، وهو يسميهم « ربعه » ويحب ان يراهم امامه على مائدة الطعام

فهو ابن بار كريم ، وأب عطوف كريم .

أما الجامعة العربية فقد أفاض جلالته في الحديث عنها وقدرها تقديرها المحكم حين قال : « إنها منار لنا لأنها تصدر في أعمالها عن بحوث مشتركة بين ذوي الرأي والبصيرة يرون في جملتهم ما لا يراه أهل كل بلد على إنفراد ، وأنها دريئة للدول العربية لأن حجة الدولة التي تحتج بقرار الجامعة قائمة ، وعذرها فيما ترضاه أو تأباه مقبول . »

ومن الأحاديث التييطرحها جلالته حديث الصيد والقنص في الصحراء لأنه رياضته المفضلة كلما اتسع لها وقته .

وقد حدثنا جلالته حديثا شائقا عن صيد الغزال في « القيظ » وصيد الحبارى في أواخر الشتاء . وخيل إلينا من حماسته أنه يتكلم وهو في الطراد .

ومن تواضع جلالته وانصافه أنه يعطي كل ذي حق حقه من الخصوم والأصدقاء . ذكر خصمه بن الرشيد : إنه كان شجاعا مقداما ولكن « مــا عنده رأي » ويعيبه البخل .

عرضت مسألة فقهية فقال في تواضع جم : « إن الغزوات والحروب

لم تدع لي وقتا للتبحر في العلوم . ولكن الذي تبحر فيها هو هذا ...
فهو أعلم الاخوان وأشار الى اخيه صاحب السمو الامير عبدالله .

والواقع ان الألمعية تبدو على وجه الأمير من النظرة الاولى . ويبدو نصيبه الوافر من الدراسات الاسلامية من مبادرته بالفتوى المسندة عن كل مسألة يستطرد إليها الحديث . وقد حضرت له مناقشة مع الرحالة البحاثة فلبي Philby عن قيمة الحفريات والاحجار المكتوبة في الدلالة التاريخية كان فيها مدافعا محسن الدفاع وإن خالفناه في بعض ما رآه .

والشيء المستغرب حقا هو مبلغ إطلاع الأمراء على أحوال مصر وأخبار عظمائها وعلمائها وذوي النباهة والشأن من أهلها . ولو كان هذا الاطلاع مقصورا على كبارهم الذين بلغوا العشرين مثلا أو ما جاوزها لقلت الغرابة ، ولكنه يعم الكبار والصغار وترى دلائله فيمن لم يجاوز منهم الخامسة عشرة أو جاوزها بقليل ، ولو سردنا طرائفهم في ذلك لضاقت بها الفصول بعد الفصول[1] » .

وقد خص العقاد بقلمه السادة الامراء السعوديين[2] بمقال ضمنه

(۱) مجلة « المصور » الصادرة بالقاهرة في ٢٥ يناير سنة ١٩٤٦ — مقال العقاد « مع الملك عبد العزيز في البحر »

(۲) انجال جلالة الملك عبد العزيز هم السادة الامراء حسب ترتيب اعمارهم:

١ — تركي توفي ١٣٣٧ هـ (١٩١٩ م)

٢ — سعود (الملك) ولد سنة ١٣١٩ هـ (١٩٠٢ م) توفي سنة ١٣٨٨ هـ (١٩٦٩ م) .

٣ — فيصل (الملك) ولد سنة ١٣٢٤ (١٩٠٦ م) .

٤ — محمد ولد ١٣٣٠ هـ (١٩١٢ م) .

٥ — خالد « ١٣٣١ هـ (١٩١٣ م) .

ذكرياته معهم نشره بمجلة « روز اليوسف » عقب عودته من الرحلة قال فيه :

« الجوانب التي يتناولها الكلام عن عاهل الجزيرة العربية أو المملكة السعودية كثيرة متعددة يجول بينها الكاتب في عالم واسع من المشاهدات والاخبار ومن الذكريات التاريخية والشعائر الدينية ، ولكننا نعتقد أن

---

٦ — ناصر « ١٣٣٧هـ (١٩١٩ م) .

٧ — مسعد « ١٣٣٧ هـ (١٩١٩ م) .

٨ — فهد « ١٣٣٨ هـ (١٩٢٠ م) .

٩ — منصور « ١٣٣٨ هـ (١٩٢٠ م) م توفي ١٣٧٠ (١٩٥١ م)

١٠ — عبد الله « ١٣٤٠ هـ (١٩٢١ م) .

١١ — نبدر « ١٩٤١ هـ (١٩٢٢ م) .

١٢ — سلطان « ١٣٤١ هـ (١٩٢٢ م) .

١٣ — مشعل « ١٣٤٤ هـ (١٩٢٥ م) .

١٤ — مساعد « ١٣٤٤ هـ (١٩٢٦ م) .

١٥ — عبد المحسن « ١٣٤٥ هـ (١٩٢٧ م) .

١٦ — مشارى « ٣٤٩ هـ (١٩٣٠ م) .

١٧ — متعب « ١٣٥٠ هـ (١٩٣١ م) .

١٨ — طلال « ١٣٥٠ هـ (١٩٣١ م) .

١٩ — عبد الرحمن « ١٣٥٠ هـ (١٩٣١ م) .

٢٠ — بدر « ١٣٥١ (١٩٣٢) .

٢١ — تركي « ١٣٥١ (١٩٣٢) .

٢٢ — نواف « ١٥٣٢ (١٩٣٣) .

٢٣ — نايف « ١٣٥٢ (١٩٣٣) .

الكلام عن عاهل الجزيرة نفسه لا يتم ولا يصور للناس صورته الحقيقية ما لم يتناول جانب « الأبوة » منه وهو الجانب الانساني الحي الذي يتراءى من النظرة الاولى لمن يحضر مجلس العاهل العظيم ويرى على ملامحه الواضحة أمارات الرضى والغبطة وهو يكلم واحدا منهم أو يسراهم حافين به متطلعين إليه ، يحبونه حب الأب الودود ويهابونه مهابة السيد المطاع ، وجملة ما يقال في النظرة التي ينظر بها جلالته إلى أبنائه انه يحتضنهم بعينيه ويشعر بالارتياح الشامل وهم على مشهد منه .

ومكان أصحاب السمو الأمراء في قاعة الاستقبال الكبرى بالقصر

---

٢٤ — فواز » ١٣٥٢ (١٩٣٤) .
٢٥ — سلمان ولد ١٣٥٥ هـ (١٩٣٦) م .
٢٦ — ماجد » ١٣٥٥ (١٦٣٦) .
٢٧ — عبد الإله » ١٣٥٧ (١٩٣٨) .
٢٨ — أحمد » ١٣٥٨ (١٩٣٩) .
٢٩ — سطام » ١٣٥٩ (١٩٤٠) .
٣٠ — تامر » ١٣٥٩ (١٩٤٠) .
٣١ — ممدوح » ١٣٦٠ (١٩٤١) .
٣٢ — مشهور » ١٣٦٠ (١٩٤١) .
٣٣ — هذلول » ١٣٦٠ (١٩٤١) .
٣٤ — عبد المجيد » ١٣٩١ (١٩٤٢) .
٣٥ — مقرن » ١٣٦١ (١٩٤٢) .
٣٦ — حمود ... ...

وللملك عبد العزيز بنات كثيرات

الملكي في مكة المكرمة هو أقصى مكان ، لأن مقامهم كما قال لهم جـلالته محفوظ ملحوظ ، والضيوف في المجلس أولى بالتوسعة والترحيب ، ولكنهم يجلسون أمامه صفا واحدا على مائدة الطعام ، ويقفون على يسار جلالته إذا وقف في عرض أو احتفال .

عرّفنا جلالته الى سموهم في القصر الملكي فلم يتردد همسة واحدة في ذكرهم بأسمائهم على التوالي مع سرعة التعريف وسرد الأسمـاء .

ولجلالته ذوق خاص في اختيار الأسماء لأبنائه فيه تجديد أسماء آبائه وأجداده في الأسرة السعودية ، أو التفاؤل للسلم والحرب أو الانتماء الى الله .

كان من حظنا في اليخت أن نجاور بعض أصحاب السمو الأمراء الشبان فتفضلوا بدعوتنا إلى الجلوس معهم وشعروا انني في حاجة الى تعريف جديد فكنت أعقب كل أسم سمعته بتفسير لمعنـاه يتضمن التحية والثنـاء .

قالوا : عبد المحسن ، قلت عبدالله جل جلاله والمحسن هو الله .

وقالوا : متعب . فقلت متعب لاعدائه .

وقالوا : مساعد . فقلت لأصدقائه .

وقالوا : مشعـل فنطقتها بفتح العـين وقلت منار ينير الابصـار فاستدرك أخوه الذكي الامير نواف قائلا : ما هو مشعل بل هو مُشعل « بضم الميم » ليشعل نار الحرب على الاعداء.

قلت : هو كذلك .

ثم عادوا إلى التعريف ،

فقالوا : طلال . قلت ظلال تظل الآمنين .

فقالوا : نواف وهو أصغر الأمراء الحاضرين سنا ، فقلت ينيف على الأنداء والأقران .

وسموه سريع الخاطر فطن عظيم الثقة بنفسه فقال في شيء من السرعة : والعقاد ؟ إيش معنى العقاد ؟

قلت : معناها القديم أنه يعقد الحرير .

فقال الأمير عبد المحسن فيما أذكر : ولكنه يعقد الفصول الآن .

ومما اعتبره تحية لمصر أن أصحاب السمو الأمراء على صغر سنهم وبعضهم لم يبلغ الرابعة عشرة ــ يعلمون الشيء الكثير عن مصر وعلمائها وعظمائها ويتتبعون أخبارها في الصحف والمذياع ويصححون ما يخطىء فيه بعض الحاشية من الأخبار والاعلام .

ومما اغتبطت به كثيرا أن صاحب السمو الأمير متعب ــ وهو لم يبلغ السادسة عشرة بعد ــ تفضل فأهدى إلي نسخة قديمة من جريدة « الحرم » لصاحبها الشاعر الفاضل الاستاذ فؤاد شاكر صدرت قبل مولد سموه بسنة وفيها قصيدة لي وصورة من صوري أيام الشباب كدت أنساها .

وسألني : هل تسرك هذه المفاجأة ؟

قلت : كل السرور .

فكتب على الصفحة التي فيها القصيدة « أقدم للأستاذ الكبير الكاتب الجبار عباس محمود العقاد قصيدته هذه للذكرى « ووقع عليها بهذا التوقيع » متعب بن عبد العزيز » .

وسأحتفظ بهذه التحية بين أنفس الذخائر والذكريات .

وقد تناول أخوه الأمير مساعد نسخة الصحيفة وقرأ منها القصيدة

قراءة صحيحة واضحة معقبا عليها بعد الانتهاء من قراءتها بهذه الكلمة الكريمة « معان قوية » .

وقد جرى جلالة الملك عبد العزيز على عادة ملكية رشيدة في تدريب الأمراء على مهام الدولة وأعمال الحكومة فمن بلغ منهم سن العمل والاشتغال بالمسائل العامة وكل إليه عملا يناسبه ، ترقى به من مهمة إلى مهمة في مراتب الكفاءة والاختبار .

وعلى حب جلالته لأبنائه ذلك الحب الجم الذي يبدو على أسارير وجهه يأخذهم جلالته بالتربية العسكرية في المواقف الرسمية ، ويطلب منهم أن يظلوا على استعداد لتلقي أوامره في كل لحظة وبغير تمهيد . فكان أصحاب السمو الأمراء جميعا لا يعلمون من منهم يسافر مع جلالة والده ومن منهم يبقى في نجد أو الحجاز وجعل بعضهم يسألون كبار رجال الحاشية ــ لتشوقهم إلى زيارة مصر ــ قائلين أنتم تعلمون ، أنتم تعلمون ، ولكنهم كانوا أيضا لا يعلمون ، وإنما علموا بأسماء الأمراء الذين يصحبون جلالة والدهم في اليوم الأخير .

وكان موقف التوديع على قصر الغبية في الطريق وفي الديار المصرية موقفا ينم على الحب المتبادل بين الاخوة والأبناء والأعمام . فكان المودعون يلثمون المسافرين وأعينهم مغرورقة بالدموع ، ثم يقبل الأصغر يد الأكبر سواء كان من المسافرين أو المودعين .

وتصرفهم ــ وان صغرت سنهم ــ تصرف الراشدين الذين يعرفون كرامة الامارة ويعطونها حقها من السمت والشارة .

لما كان الأمير نواف في الولايات المتحدة طلب أن يقابل الرئيس

ترومان في القصر الأبيض ، فتلقاه الرئيس في مقابلة خـاصة بالترحيب والاكرام . قلت للأمير : وما رأيك في الرئيس ترومان ؟

فأجاب جوابا يكبر سنه بكثير ، وقال أنا ما اجتمعت بالرئيس غير لحظات ، فليس لي أن أقول فيه رأيا من الآراء .

وأخبرني من كان مع سمو الأمير في زياراته للمدارس وللجامعات الأمريكية أن الطلبة كانوا يسألونه ويكثرون من الأسئلة فيجيبهم سموه فيما يرى الاجابة عليه . ولكنه في زيارة من هذه الزيارات قال لهم : ألا أسألكم مرة كما تسألونني ؟ . قالوا : تفضل .. فسألهم : ما هي حـدود المملكة السعودية ؟ فوجموا وخلطوا في الجواب . فعاد الأمير يقول : سؤال منتظر لا تعرفون جوابه ، وقد أجبت أسئلتكم فيما يخطر أو لا يخطر على البـال! .

وهم ـ أي سمو الأمراء ـ من أكبر قراء الصحف المصرية بين يومية وأسبوعية وشهرية ، ومنهم من يشترك في نيف وثلاثين صحيفة ويذكرون بمقالات فيها نشرت منذ شهور ويحق للصحافة المصرية أن تعتد بهذه النخبة من القراء الأدباء والأمراء .

أقر الله بهم عين والدهم العظيم ، وكتب الخير على يديهم لرعيته المخلصين[1] . »

وسمعت العقاد يروي يوما لرواد ندوته في أسوان قصة العاهل الراحل حينما دخل المذياع المملكة ،فقد اعترض بعض المحافظين المتشددين وأنكروا على جلالته استماعه للراديو واستعانته باللاسلكي والتليفون لأنهم يظنون أن بها شياطين تنقل الحديث . فسألهم جلالته يومذاك . هل الشيطان

(۱) روز اليوسف الصادرة ١٣ صفر ١٣٦٥ هـ ـ ١٧ يناير ١٩٤٦ م .

يطيق كلام الله ، فأجابوا : بالنفي . قال : اسمعوا .. فاذا الراديو يذاع منه القرآن الكريم بصوت عذب وخيم تعد حروفه ، وأمر أحد أتباعه بأن يسمع المعترضين في التليفون بعض آي الذكر الحكيم . فدهشوا وأيقنوا أنه لا شيطان ولا سحر ، ولكن ذلك سر العلم ومحصول الدأب على الاستنباط وتنائج القرائح العبقرية . كما روى يومذاك أن عظمة جلالته في حياته الخاصة تظهر من خلال علاقاته بأخوته واخواته فقد كان جلالته دائم الزيارة لأخته الكبرى وكان يتلطف إليها ويشعرها بمكانتها عنده لأنها أكبر منه وأنه كان يقبل رجاءها بل أمرها ويتحدث إليها في التليفون كما كان يزور بناته في بيوتهن ويحمل لهن الهدايا ليدخل على نفوسهن السرور .

كما روى لهم : ان ديمقراطية جلالته في معاملة رعيته مضرب للمثل. فقد سمع الناس يتحدثون عنه باسمه مجردا من هالات الحكم المعهودة . فقد كان جلالته يخرج في موكب كانوا يطلقون عليه هناك «موكب الرحمة» وبينما الموكب يشق طريقه صاح أحد البدو بعد أن أقترب منه قائلا : « يا عبد العزيز : مظلوم . فأمر الملك سائقه بالوقوف فهو يكره أن يكون بين رعيته مظلوم فأدنى منه الرجل وسأله حاجته .

فقال : أريد الهجرة ..أريد دواء .. أريد كساء .

فأمر جلالته للرجل بالدواء والكساء وأعطاه عشرين جنيها لتساعده على الهجرة . ثم مضى موكب الرحمة في طريقه ..

كما روى العقاد في تلك الجلسة . كيف جاء أحد المقاولين من أبناء المملكة متظلما أمام جلالته من أحد الأمراء من أبنائه . وتتلخص الشكوى في أن للرجل أرضا تجاور أرض الأمير وفي غياب الرجل أقام الأمير على قطعة أرضه قصراً ويبدو ان البناء جار على جزء من قطعة الرجل .

وسمع جلالته شكوى الرجل . فاستدعى الأمير وسأله في الواقعة .

فذكر أنها حدثت دون قصد منه وإنما عمال البناء هم الذين جاروا على ذلك الجزء .

وهنا أطرق ابن سعود ثم نطق بحكمه الذي كان مضرب الأمثال فقال :

« يخير الشاكي بين هدم عمارة الأمير حتى يسترد أرضه من تحتها ، أو ينال أربعة أمثال ثمن القطعة مع التعويض المناسب من مال ولدنا الذي اعتدى على أرضه » .

ووافق الرجل على قبول الثمن والتعويض ، ودعا للملك بثواب الآخرة .

إن هذا الرجل الذي يحكم على ابنه بذلك الحكم لا تكفيه كلمة « عادل عظيم » ولكن القارىء الذي يقرأ هذا البيان من بياناته لا يستغرب هذه الخليقة فيه . فقد أصدر يوما هذا البيان :

« من عبد العزيز بن سعود إلى شعب الجزيرة العربية :

على كل فرد من رعيتنا يحس أن ظلما وقع عليه أن يتقدم إلينا بالشكوى .. وعلى كل من يتقدم بالشكوى أن يبعث بها بطريق البرق ، أو البريد المجاني .. على نفقتنا .

وعلى كل موظف بالبريد أو البرق يتقبل الشكاوي من رعيتنا ولو كانت موجهة ضد أولادي ، وأحفادي .. وأهل بيتي .

وليعلم كل موظف يحاول أن يثني أحدأفراد الرعيةعن تقديم شكواه مهما كانت قيمتها أو حاول التأثير عليه ، ليخفف لهجتها إننا سنوقع عليه العقاب الشديد .

لا أريد في حياتي أنأسمع عن مظلوم ، ولا أريد أن يحملني الله وزر ظلم أحد ، أو عدم نجدة مظلوم ، أو استخلاص حق مهضوم .. ألا قد بلغت اللهم فأشهد .»

وروى أمين الريحاني في كتابه « ملوك العرب » الحادثة الآتية عن جلالة الملك عبد العزيز عندما كان سلطانا لنجد . قال :

« التفت إليَّ السلطان وقال : أمرنا مشكل يا استاذ . علينا الكبيرة والصغيرة فاذا كنا لا نداوم المراقبة لا نكون عالمين بكل ما يتعلق بشؤوننا . العبد والأمير : عينينا على الاثنين حتى ننصف دائما الاثنين ونعدل بينهما .

كان إذ ذاك يراقب قافلة أناخت عند خيمة المونة تحمل النبت والخضر والماء من الحسا فأمر السلطان أن يحضر قيمها (أي قائدها) وسأله سؤالا بخصوص جمل من الجمال .

فقال القيم : هو حرون يا طويل العمر .

فأجابه السلطان : أتركه يرعى مع الجيش (أي مجموع الابل) ولا ترجعه معك . وعاد الى حيث وقف الحديث فاستأنفه قائلا : العدل عندنا يبدأ بالابل ومن لا ينصف بعيره يا حضرة الأستاذ لا ينصف الناس !

وروى الشيخ عبد العزيز بن فوزان أحد رجال حاشيته : « أن لجلالته ذاكرة عجيبة ذات مقدرة كبرى في استيعاب الحوادث وتسجيلها بحيث تظل منقوشة في طياتها ، خالدة في تضاعيفها فاذا ما عرضت مناسبة من المناسبات لحديث يتصل بالماضي ويحتاج إلى إستشهاد أفاض جلالته في الحديث كأنما يقرأ من كتاب ، أو كأنه يتدفق من نهر وحدث مرة أنكان بسياراته مارا فاستوقفه رجل كهل يطلب منه المعونة فقال له جلالته : « هل انت فلان ؟ » قال نعم ! قال هل تذكر يوما أتيت فيه دارك ؟! قال نعم .

ذلك قبل خمس وثلاثين سنة ، عندما أتيتنا ممتطيا صهوة جوادك عند الغروب ، فالتفت إلينا وقال : صحيح ما قال ؟! ونفحه جلالته بشيء من المال وأمره أن يقابل رئيس ديوانه فيخبره بحاجته وهو من قرية تسمى « إبصر » من مقاطعة القصيم ، أما معرفة جلالته لهذا الرجل ودخوله لداره فهذه حدثت عندما كان جلالته يحارب خصمه ابن الرشيد وكان يخوض المعارك بنفسه على جواده وصادف انه استمرت المعركة بينهما ليل نهار أياما متوالية بجوار هذه القرية ، وكان جلالته قام بجولة خاصة ممتطيا جواده دون أن يعرفه أحد ليستطلع مدى قوات خصمه ، ومر بهذه القرية ودخلها يستمع إلى رأي أهلها وكان من بينهم هذا الشخص فدعاه إلى بيته وهو لا يعرف أنه الملك ـ ولكنه يعتقد أنه من رجاله ، تلك هي مناسبة دخوله منزل ذلك الرجل ! التي لم تغب عن ذاكرة جلالته »[1]

* * *

ذكرنا قبل صفحات أن العاهل الراحل كان محبا للرياضة ومن المشجعين لها في الجزيرة لذلك كان من ضمن برنامج زيارته للقاهرة أن يشاهد حلبة السباق بنادي مصر الجديدة وأعد المسئولون يومذاك برنامجا عظيما حضره جلالته وصحبه يومذاك السادة الأمراء الأنجال الاعزاء النجباء ، ويومها كتب العقاد على صفحات صحيفة « الكتلة » مقالا تحت عنوان « الملك الرياضي » ذكر فيها أحب أنواع الرياضة لدى العاهل الضيف بمناسبة شهوده حفلة السباق جاء فيه ،

« ربما كان منظر السباق الذي شهده أمس صاحب الجلالة الملك عبد

---

(١) رحلة الربيع للاستاذ فؤاد شاكر مطبعة دار احياء الكتب العربية عيسى الحلبي وشركاه بمصر طبعة ١٣٦٥ هـ ـ ١٩٤٦ م ص ٢٤٥ .

العزيز من أحب المناظر إلى جلالته وأسرها لقلبه ، لأنه كما لا يخفى مـن أشهر فرسان الجزيرة العربية وأكثرهم ملازمة لمتون الخيل من باكر صباه.

ولكن الذي يقع عند كثير من القراء موقع الخبر الطريف أن جلالته يحب الرياضة البدنية منها على الخصوص رياضة الصيد والقنص ويتكلم عنها في حماسة واشتياق كلمـا عرضت مناسبة من مناسباتها .

حدثنا جلالته على يخت « المحروسة » عن صيد الغزلان وصيـد الحبارى[1] ، فقال إن الغزلان عندنا لا يستحب صيدها في غير موسم القيظ لأنها تحمل أجنتها في غير هذا الموسم ولا خير في اصطيادها ولكن الحبارى على خلاف ذلك تصاد في أواخر الشتاء ، وهي في هذه الفترة من السنة تتجمع على الأرض بالمئات ، ويتقابل ذكورها على إناثها فتتزاحم في بقعة واحدة ، وتصيب الطلقة الواحدة منها عشرات وهي على هذه الحالة .

قال جلالته ، ولكن لا استحب صيدها إلا وهي في الهواء ، لأن لذة الصيد في إصابة الهدف على هذا المنوال .

ومن أحب الرياضات إلى جلالته رقصة الحرب التي يرقصها الاخوان النجديون وهم مقبلون على الميدان ، وهي رقصة مهيبة متزنة تثير العزائم وتحيي في النفوس حرارة الايمان ، ويتفق أحيانا أن يستمع جلالته إلى أناشيدها ويرى الفرسان ، وهم يرقصونها ، فتهزه الأريحية ويستعيد ذكرى الوقائع والغزوات فينهض من مجلسه ويزحزح عقاله ويتناول السيف وينزل الى الحلبة مع الفرسان ، فترتفع حماستهم حين ينظرون الى جلالتـه في وسطهم طباقا فوق طباق .

وبفضل هذه الرياضيات وأمثالها ــ مع انتظام المعيشة ــ يحتفظ

---

(١) طائر اكبر من الدجاج الاهلي واطول عنقا وهي انواع كثيرة .

جلالته بقوة البنية التي أنعم الله بها عليه ، فهو لا يزال بها في حمية الشباب[1].

عقب ذلك أقام النواب والشيوخ للعاهل الكريم حفلة شاي كبرى بالبهو الفرعوني الكبير بالبرلمان . وعقب ذلك التشريف السامي من العاهل الزائر رأى العقاد أن يكون موضوع مقاله على صفحات « الكتلة » عن الشورى في المملكة العربية السعودية فكتب يومذاك :

« كان أمس موعد الزيارة التي شرف بها صاحب الجلالة الملك عبد العزيز دار البرلمان المصري في حفلة الشاي التي أقامها حضرات الشيوخ والنواب لجلالته بالبهو الفرعوني .

وهذه الزيارة كريمة توحي إلى أذهان القراء السؤال عما يقابل النظام البرلماني في المملكة السعودية لأن القراء جميعا يعلمون أن الشورى من فرائض الدين الاسلامي التي نص عليها القرآن المجيد غير مرة ، وإن آل السعود يعملون في حكومتهم بأحكام الكتاب وسنة الرسول وما تواضع عليه السلف الصالح في أمور الدين والدنيا .

والواقع أن الشورى في تدبير أمر الدولة نظام معمول به في الحكومة السعودية منذ قيامها ، وأنها تقررت في الحجاز منذ نيف وعشرين سنة فعقد جلالته في مكة المكرمة إجتماعا عاما من العلماء والأعيان والتجار وخطب فيه قائلا :

« إنني أريد من الهيئة التي ستجتمع لانتخاب الأشخاص المطلوبين أن يتحروا المصلحة العامة ويقدموها على كل شيء فينتخبوا أهل الجدارة

---

(١) صحيفة « الكتلة » الصادرة الاثنين ١٣ يناير ١٩٤٦ م مقال العقاد بعنوان « الملك الرياضي » .

واللياقة الذين يغارون على المصالح العامة ولا يقدمون عليها مصالحهم الخاصة ويكونون من أهل الغيرة والحمية والتقوى » .

ثم قال جلالته : « تجدون بعض الحكومات تجعل لها مجالس للاستشارة ، ولكن كثيرا من تلك المجالس تكون توهما أكثر من الحقيقة، وتشكل ليقال إن هنالك مجالس وهيئات ثم يكون العمل بيد شخص واحد ويسب العمل للمجموع . أما أنا فلا أريد من هذا المجلس الذي أدعوكم لانتخابه أشكالا وهمية ، وإنما أريد مجلسا حقيقيا يجتمع فيه رجال حقيقيون يعملون جهدهم في تحري المصلحة العامة ... أريد حقائق . أريد رجالا يعملون ، فاذا اجتمع أولئك المنتخبون وأشكل على أمر من الأمور رجعت إليهم في حله، وعملت بمشورتهم وتكون ذمتي بريئة من المسئولية» .

ومنذ ذلك الحين يجتمع مجلس الشورى ويعرض عليه الشئون الخاصة بالبلدية والمحاكم الشرعية والأوقاف وتعميم التعليم وحفظ الأمن وترقية التجارة وحل المشكلات الداخلية التي ترجع إلى العرف ولا تخالف أصلا من أصول الشريعة .

وجلالة الملك عبد العزيز هو الذي يعين عدد الأعضاء الذين يتألف منهم مجلس الشورى وهو الذي يدعوه أو يأمر بحله اذا شاء .

أما الشروط المطلوبة في العضو فهي أن يكون حسن السمعة وأن يكون من ذوي المعرفة والخبرة وألا تقل سنه عن خمس وعشرين سنة .

وللمجلس أن يخالف الحكومة في قراراتها فتعاد إليه القرارات في هذ الحالة مشفوعة بالملاحظات التي تراها الحكومة كافية لاقناعه .

فاذا أصر المجلس على رأيه وأصرت الحكومة على رأيها ، فالمرجع إذن إلى جلالة الملك يفصل بما يراه ، ومن حق المجلس أن يكلف رئيسه بمراجعة

جلالة الملك في شأن القرارات التي ترفع الى جلالته ويمضي عليها شهران دون ان تبت فيها الارادة الملكية بالتصديق .

ويحيط بجلالة الملك عبد العزيز نخبة من المستشارين الذين يختارهم جلالته من الشيوخ المحنكين والشبان المطلعين ، وبعضهم من نجد والحجاز وسائر أنحاء الجزيرة العربية ، وبعضهم الآخر من سورية أو فلسطين أو طرابلس أو مصر أو البلاد الاسلامية،فهم بمثابة جامعة عربية صغيرة يمثلون عند جلالته بمختلف المقاصد والآراء .

وجلالته عظيم العناية باستطلاع رأي شعبهوالرجوعإليه في المشكلات التي تتفرق فيها المنازع ويتشعب فيها مجال القيل والقال .

وهذه سنة قديمة في الحكومة السعودية جرى عليها جلالته في معاملة الأخوان النجديين ، وفي معاملة غيرهم من الشعوب .

فلما اضطرب الأمر بين نجد والعراق وإندفع بعض المتشددين فيطلب الجهاد على غير علم بأصوله الدينية وعواقبه السياسية أرسل جلالته في طلب الرؤساء والعلماء وذوي الرأي وأصحاب النزعات المتباينة ليوافوه عند قصره بالرياض ويفضوا إليه بشكاياتهم ومطالبهم ويصارحوه القولفيما يأخذونه على حكومته وما يشيرون به عليه ، وبلغ من صراحته أنه وقف أمامهم وهو يقول لهم : « فكروا أيها الاخوان في الرجل الذي تجدونه أهلا لقيادتكم ، فان لم تجدوني أهلا لحكمكم فاختاروا لكم رجلا آخر على أن يكون من أفراد أسرتي التي قامت بالأمر فيكم ، ولكم علي أن أبايعه قبلكم وأعاونه بكل ما استطيع ..

فارتفعت الأصوات من كل جانب كأنما تصدر عن وحي واحد : كلا . كلا أما هذا فلا ، وإنما نريدك أنت يا عبد العزيز ولا نريد غيرك . »

فقال جلالته عندئذ : أما إن كان هذا رأيكم فتحدثوا إلي اذن فيما تتحدثون به بينكم ، وابسطوا إلي بشكواكم وإنا كفيل لكم بأن أعمل بها أو أقنعكم وأرضيكم •

وعلى هذا النحو يسير جلالته في استطلاع الآراء وتوثيق عرى التفاهم بينه وبين رعاياه ، وكثيرا ما يشرك في الأمر طوائف الحجاج المقبلين من مشارق الارض ومغاربها كلما طرأ بينه وبين بعض الحكومات الاسلامية بحث أو خلاف ، فيخطبهم ويفضي اليهم بدعواه ودعوى مخالفيه ، لأنه ينظر الى هؤلاء الحجاج من جميع أقطار الارض وكأنهم « مؤتمر اسلامي » يحق له أن يطلع على حقائق الاحوال بين حكومات المسلمين ويطلعوا عليها أخوانهم حين يرجعون اليهم •

وجلالته يضطلع بالتبعات العظمى وحده بعد المشاورة والمداولة والاستطلاع •

ولكنه يتكلم عن المسائل الكبرى بسليقة ديمقراطية يستمدها من أصول الدين ومن البصيرة النيرة التي تهديه في معضلات الأمور •

فلما تحدث إلينا جلالته عن الجامعة العربية قال إن مصير هذه الجامعة موكول إلى إرادة العرب أجمعين ، وإنها تستقر وتدوم على قدر استقرار الايمان بها في خواطر الأمم التي تتألف منها ، فاذا علمت هذه الأمم أنها نافعة لها صالحة لهدايتها ، فهي مستمرة ، وهي بفضل هذا الايمان تقاوم ما يعترضها من التنافس هنا والتنازع هناك • وضمان الشعوب للجامعة العربية خير لها من ضماننا نحن الحكام والرؤساء •

وهي سليقة ديمقراطية دستورية توائم ما فطر عليه جلالته من حب التشاور وصدق الرغبة في التفاهم ، وما أصغينا إلى جلالته مرة إلا أحسسنا

باهتمامه الدائم بالايضاح والاقناع[1] »

وواصل العقاد الكتابة عن العاهل الكبير وعن نظام حكمه الديمقراطي المنبثق من الدين الحنيف وتعاليمه الكريمة فكتب في اليوم التالي وعلى صفحات «الكتلة» أيضا مقالا قيما عن طريقة العاهل الراحل في اقناع رعاياه تحت عنوان : « الملك عبد العزيز يقنع رعاياه بدأه بقوله :

« أشرنا أمس إلى نظام الشورى الذي يعمل به في المملكة السعودية وقلنا أن جلالته يصدر في ذلك عن سليقة ديمقراطية دستورية توائم من حب التفاهم وختمنا المقال قائلين (وما أصغينا الى جلالتــه مرة إلا أحسسنا باهتمامه الدائم بالايضاح والاقناع •)

والواقع أن جلالته يحتاج إلى استخدام وسائل الاقناع كثيرا في مخاطبة شعبه على تفاوت طبقاته لأنه يريد الانتفاع بالعلوم الحديثة فيما يوافق البيئة الشرقية ويريد في الوقت نفسه أن يرضي رعاياه عن خطط الاصلاح التي ينتهجها في بلاده ليتقبلها أهل البلاد متفهمين مؤيدين ولا يذعنوا لها مرغمين أو كارهين ، وقد آتاه الله ملكة نادرة تعينه على اقناع المعارضين على اختلاف حظوظهم من المعرفة والذكاء ، فان أجدى الدليل والبرهان في افهامهم وتجلية الحقائق لأذهانهم فذاك ما يبغيه جلالته ويسعى إليه ، وإن أصر المعارضون على العناد فهنالك يجدي الحزم جدواه ويفعل البأس ما لا يفعله البرهان •

وقد عرف الكثيرون أن بعض المتشددين أنكروا التليفون والبــرق واللاسلكي كما أنكروا السيارات وماشاكلها من وسائل المواصلات فقال

---

(1) صحيفة « الكتلة » الصادرة يوم ١٩٤٦/١/١٦م مقال العقاد « الشورى في المملكة السعودية » •

جلالته لهؤلاء المتشددين أيها الاخوان : إن أهل العلم في مكان الرعاية منا وهم على رؤوسنا ، ولكن حذار أن يهزونا بالغضب فيسقطوا من مكانهم هذا إلى الأرض ، ومن سقط الى الأرض فلن يعود إلى مكانه فوق الرؤوس » .

والتفت جلالته إلى مقاعد العلماء في مؤتمر الرياض الذي أشرنا إليه في مقال أمس قائلا : « وهل تجدون في كلام النبي عليه السلام ما يمنعنا أن ننتفع بالمخترعات الحديثة في تيسير المواصلات والسير على سنن التقدم والحضارة ؟ »

فأجاب جلهم من أهل الرأي كلا . ولا حرج في ذلك .

على أن جلالته قد أقنع المعارضين بما يبطل مخاوفهم ويزيل الشكوك من أذهانهم وعلم أن بعضهم كانوا يذهبون إلى محطة اللاسلكي ليسألوا الموظفين هناك عن المكان الذي يمسكون فيه الشياطين ويقدمون اليها القرابين لتحمل لهم الأخبار إلى الأماكن القصية ، فقطع جلالته الشك ببرهانه المشهور وأسمعهم القرآن الكريم من المذياع والتليفون ليوقنوا أن الذي ينقل القرآن الكريم لا يكون من عمل الشيطان » .

وقد سمعنا وقرأنا قبل سفرنا إلى الحجاز كثيرا من الأمثلة الألمعية لبعض الاقضية السعودية التي يتوخى جلالته فيها العدل والاقناع مع العلماء والجهلاء على حد سواء ، وانتوينا أن نسأل عن تفصيل هذه الاقضية كلما سنحت لنا فرصة السؤال تمحيصا للرواية فيما تختلف فيه الروايات.

من ذلك أن امرأة ساذجة اخذت بتلابيب رجل من البادية الى مجلس صاحب الجلالة الملك وهو يستمع للشكايات ، وطلبت أن يحكم لها بقتل الرجل لأنه قتل زوجها ويتم أطفالها فسألها جلالته عن القصة فقالت : إن

زوجي كان ينام تحت نخلة في العراء ، وكان هذا الرجل يجني الثمر منهـا فسقط عليه وهو نائم فقتله •

قال الملك : ولكنه لم يقصد قتله •

قالت الزوجة : لا أبالي قصد أم لم يقصد فان الذي أعلمه ويعلمه الناس انني كنت زوجة يعولني عائل فأصبحت أيما لا عائل لي بفعل هذا الرجل القاتل فلا مناص من القصاص •

وهنا فتقت الحيلة لجلالته فتوى تقنع المرأة وتحفظ حدود العدل فلا تجوز بالقصاص على غريمها المسكين فقال لها جلالته : حسن ما تطلبين••! وإنما يعامل القاتل بمثل عمله ، فاصعدي أنت صاحبة الحق في الدم على تلك النخلة التي سقط منها واسقطي عليه كما سقط على زوجك وأقتليه•

سألنا جلالته عن هذه القضية فقال مبتسما : والله ما اذكر ••• ان الأقضية كثيرة ولعلها مضت بي في بعض ما مضى •

وإنما سنحت الفرصة لسؤال جلالته في هذه القضية بعينها لأن جلالته كان يتحدث عن الأم والمرأة التي نازعتها في ابنها وقبلت المرأة التي تنازعها فيقضي الحكم بينهما يشق الوليـد نصفين ، فسلمت الأم في ابنها وقبلت المرأة التي تنازعها هذا القضاء •

قال بعض الجالسين : هذا قضاء سليمان عليه السلام كما ذكرت كتب السنة فكثيرا ما كان يهتدي الى حكم مغاير لحكم ابن داود ويرضى أبوه والناس بذلك الحكم وقد أشار الله تعالى الى بعض أقضيته تلك في قوله تعالى :

« وداوود وسليمان اذ يحكمان في الحرث اذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما » •

سورة الانبياء

ومن الأقضية التي اشتهرت عن جلالته في الحجاز أن رجلا من المغرب طرأ على مكة المكرمة فادعى أنه من سلالة بيت الشيبي الذين يتقلـدون مفاتيح الكعبة المعظمة ويتوارثونها جيلا بعد جيل ، ثم لج الرجل الأفاك في دعواه وأثار الثائرة في كل مكان على أبناء ذلك البيت يلاحقهم في الكعبة وفي منازلهم وفي المجالس والأسواق ليكرههم على موافقته أو إرضائه ، واشتغل الناس بهذه القضية بين منكرين للدعوى ينكرونها لأنهم يعرفون النسب الصحيح ولا يرون دليلا قاطعا على صدقها ، وبين مشجعين للرجل من قبيل النكاية والشحناء .

فلما رفع الأمر الى الملك عبد العزيز دعا بذلك الرجل الافاق في مجلس حافل وسأله :

أطالب دين أنت أم طالب دنيا بما تدعيه ؟

قال الرجل : بل طالب دين !

قال الملك : إن كنت إنما تطلب الدين ولا تطلب غيره ، فاذهب فأنت من بيت الشيبي وهذه الكعبة أمامك تتعبد فيها كما تشاء ، وإن كنت إنما تطلب الدنيا فوالله ما أخطأ القوم إذ ينازعونك وينكرونك وأنت تنازعهم بغـير برهان ، ولا سبيل الى القضاء لك عليهم بغير البرهان الصحيح .

وكثيرا ما ترفع المشكلات إلى جلالته فيقضي فيها بما يقنع الخصمين على هذا المثال ، وكثيرا ما يقضي في المعضلات السياسية بما يشبه هـذا القضاء فينفض الاشكال . وقد يحتكم إلى جلالته رجلان من رجاله المقربين في معرض السمر والتبسط على الحديث ، فلا يحيد عن هذه السنة في قضائه العادل على البديهة :

إننا راضيان بحكمك يا طويل العمر ...

قال لجلالته رجلان من أقدر رجاله في محادثة من هذا القبيل جرت أمامنا فقال جلالته مشيرا إلى كل منهما : هذا أقوى وهذا أظلم !

قلنا لأحد الرجلين الكبيرين متجاهلين : من أراد جلالته بالاقوى ومن أراد بالأظلم فيما بينكما ؟ قال والله لقد صدق جلالته فيما حكم به ، وان صاحبي لاشطر مني ، ثم ضحك وهو يقول : ولكنني أنا أقوى ..

وعلى هذه السنة الماضية يعمد جلالته إلى الحزم فيما يدعو إلى الحزم ، ويتوخى الاقناع فيما يجدي فيه الاقناع[1] .

❋ ❋ ❋

وقد التقى العقاد عقب وصوله الأراضي الحجازية بأحد أدبائها وشعرائها وهو الاستاذ احمد عبد الغفور العطار الذي نشر ما دار بينه وبين العقاد سنة ١٣٦٥ هجرية ورأينا أن ننقل ما قاله العقاد يومذاك للعطار بالقدر الذي يلزم في هذا الكتاب .

فقد قال العطار : أما نحن أدباء مكة فما كدنا نعلم بوصوله- أي العقاد مكة حتى تسابقنا الى زيارته وكان أبين أعضاء البعثة بقوامه الفارع الطويل وبنائه الشاهق وتركيبه الوثيق !

وفي اليوم الثاني عقب وصوله هرع إليه نفر من الأدباءلتحيته وللتزود من أدبه ومعارفه وثقافته الواسعة أما أنا فمن اشد الناس دراسة لأدب العقاد واعجابا به وتقديرا له ، بل هو عندي الكاتب الأول للعربية في عصرنا الحاضر ، وبيني وبينه صلات ودية ترجع الى تسع سنوات خلت،ولهذا كنت اعظم شوقا من غيري الى لقائه وتحيته في بلادي ، وذهبت اليه . وانتظرته

---

(١) صحيفة « الكتلة » الصادرة صباح الخميس ١٩٤٦/١/١٧ مقال العقاد بعنوان « الملك عبد العزيز يقنع رعاياه » .

حيث ينزل لمدة دقائق فأبصرته قادما فنهضت اليـه استقبله وتصافحنـا مصافحة حارة فبادر الاستاذ فؤاد شاكر يعرفه بي فأجاب الكاتب الكبير : انني أعرفه من مصر منذ سنين •

وجلسنا على كرسي طويل نتحدث وهذا بعض الحديث :

قلت :إن شباب البلاد العربية السعودية وأدباءها يودون لو طال مقامك بينهم أياما ليقيموا لك حفلات التكريم فهم أرباب قلم وأصحاب فكر وذوو بيان وانهم معجبون بك ، وكانوا يتمنون من صميم قلوبهم ان يتحدثوا إليك • وانهم اليوم يجدونك في بلادهم فيأسفون على أنك لن تقيم بينهم إلا سويعات معدودات لاتتيح لهم أن يؤدوا بعض مالك عليهم •

فقال الكاتب الكبير :

« إنني شعرت منذ هبطت بلدكم المقدس بالحفاوة والتكريم ، وانني أشكر لكم حفاوتكم بي وهي حسبي ، وهي عندي أعظم من حفلات التكريم ، ولقد وجدت هنا شبابا ناهضا يصبو الى الادب والفن والعلم ، شبابا ناهضا دائب الدرس والتحصيل ، متابعا الحركة الادبية باهتمام لا مزيد عليه ، وهذا شيء يجعلني مطمئنا الى أن لهذه البلاد مستقبلا أدبيا وإنني لواثق أن وثبتكم الجديدة ستعيد إلى بلادكم سمعتها الأدبية الأولى » •

قلت : أتذكر ـــ يا استاذ ـــ انك قلت لي سنة ١٣٥٦ هـ (١٩٣٦ م) عندما طلبت اليك زيارة بلادنا : ان لم أطف بالبيت سبعا فقد طافت بـه روحي سبعين مرة » وددت أن تلقي شباب المملكة العربية السعودية في حرمهم ، وها أنت ذا قدمت الى بلدنا الحبيب الى كل مسلم ، فالحمد لله الذي بلغنا منانا وبلغك مناك ، غير اننا لا نقنع منك بالزيارة الخاطفة والمقام القصير : ولا يقنع بلدنا منك إلا أن تبقى به شهرا على الأقل لنقوم بواجبنا

نحوك ، ولتقوم أنت بواجبك نحو البلد الذي أنبت أبطال عبقرياتك الخوالد .

فقال الكاتب الكبير :

« نعم ، أذكر ذلك ، وانني — الآن — لسعيد بأن ألقى شباب مكة في حرمهم وأرجو أن يبلغني الله ما اريد ، فأقيم بينكم الأيام التي ترغبون» .

ثم أخذ الاستاذ العقاد يذكر هذه البلاد بالخير والثناء ويتمنى أن يكون حاضرها ومستقبلها كماضيها المجيد ، وانتقل إلى الكلام في الآداب والفنون وأثرها في الحياة . فقلت له : إن مصر لم تضمن لنفسها هذه المكانة في العالم العربي ولم يكن لها فيه هذا الاحترام المشهود إلا بالدعاية الصادقة ، وكان أدباؤها هم الدعاة الصادقين ، وكانوا طلائعها إلى الأمة العربية حتى كانت لها هذه الزعامة وهذا التقدير والاعجاب .

العالم العربي معنى بتتبع حركات مصر الادبية والثقافية والعلمية كثيرا ، ولم يضمن له هذه المكانة الا العقاد والمازني وطه وهيكل واحمد امين وغيرهم من أرباب الأقلام والفنون فسفارة مصر الأدبية إلى كل قطر عربي سفارة لها شأنها ، وهي أفيد السفارات كلها وأقواها أثرا .

فقال الكاتب الكبير :

« مكانة الأديب الحق تزداد رفعة ، كما يزداد قراء وانصارا واتباعا كل يوم ، وأدبه خير سفارة ، وهو وحده الدعاية الصادقة البريئة من كل زيف وهوى » .

قلت : إن لك لرأيا في العالم العربي . وأرجو ان ينال أدبنا من تشجيعك ما يلفت اليه نظر أدباء الشرق العربي فهل تعدني بالكتابة عنه ؟

فقال الكاتب الكبير :

« أما التشجيع الحق فلن أضن به ، وهو غير الاعلان الامريكـــي وانت تعلم أني لست من كتاب الاعلانات ولهذا لا استطيع أن اكتب عن الادب الحجازي شيئا الا اذا قرأت ـــ على الاقل ـــ أربعين قصيدة وشيئا كثيرا من نثر ادباء الحجاز ليسعني سوق الدليل حتى يعلم القراء انني لم اكتب إلا ما كان حقا ـــ كعادتي ـــ ويعلموا اني لم أخادعهم ، وقـــد طلب اليّ من قابلني من أدباء مكة هذا الطلب وأنت نفسك تفهمني اكثر من غيرك ، فان كنتم مصرين على رغبتكم فابعثوا إليّ بآثاركم لأدرسها ـــ أولا ـــ ثـــم أبدي رأيي فيها بصراحة ـــ ثانيا ـــ .

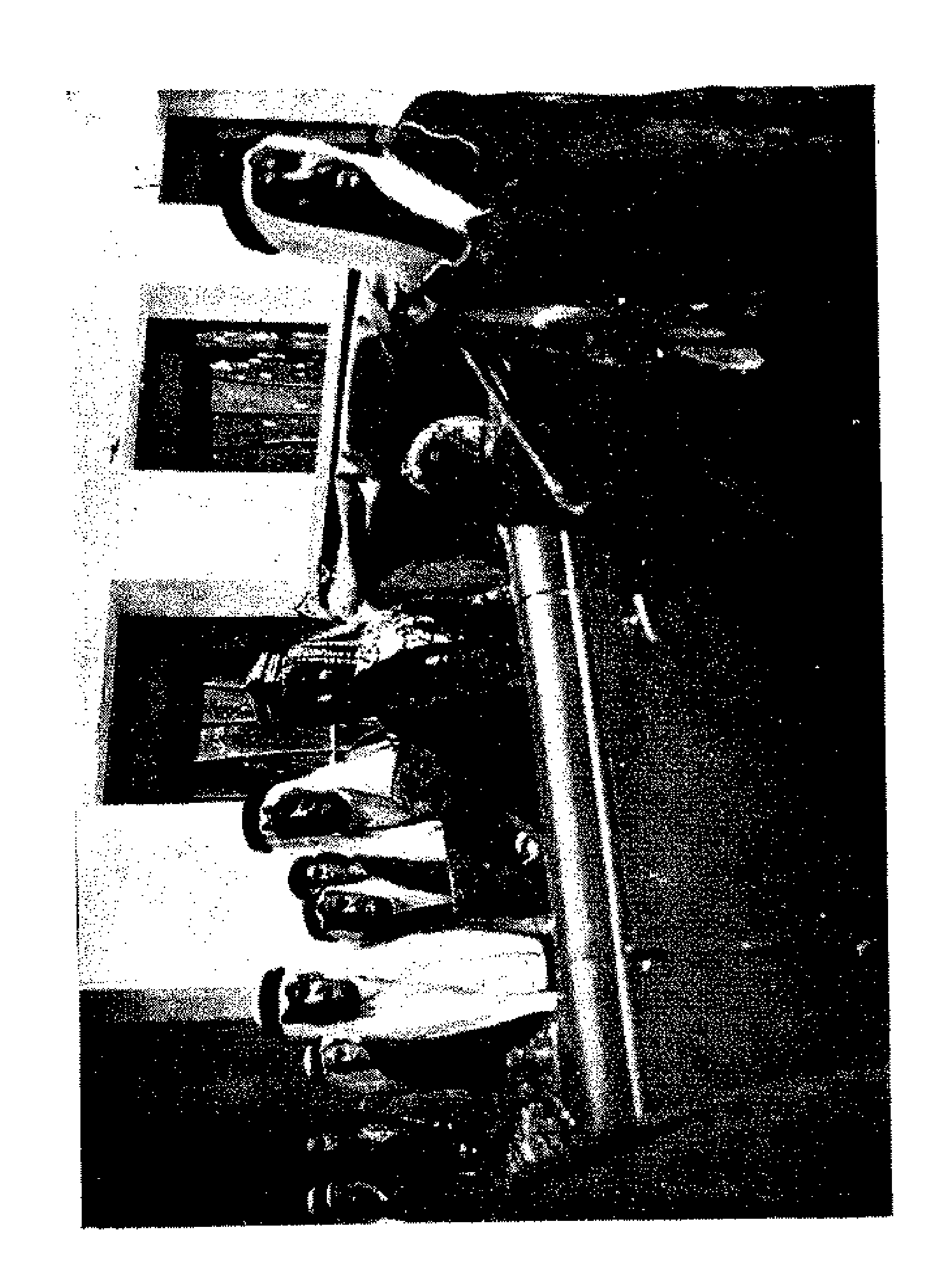
ثم قال الكاتب الكبير :

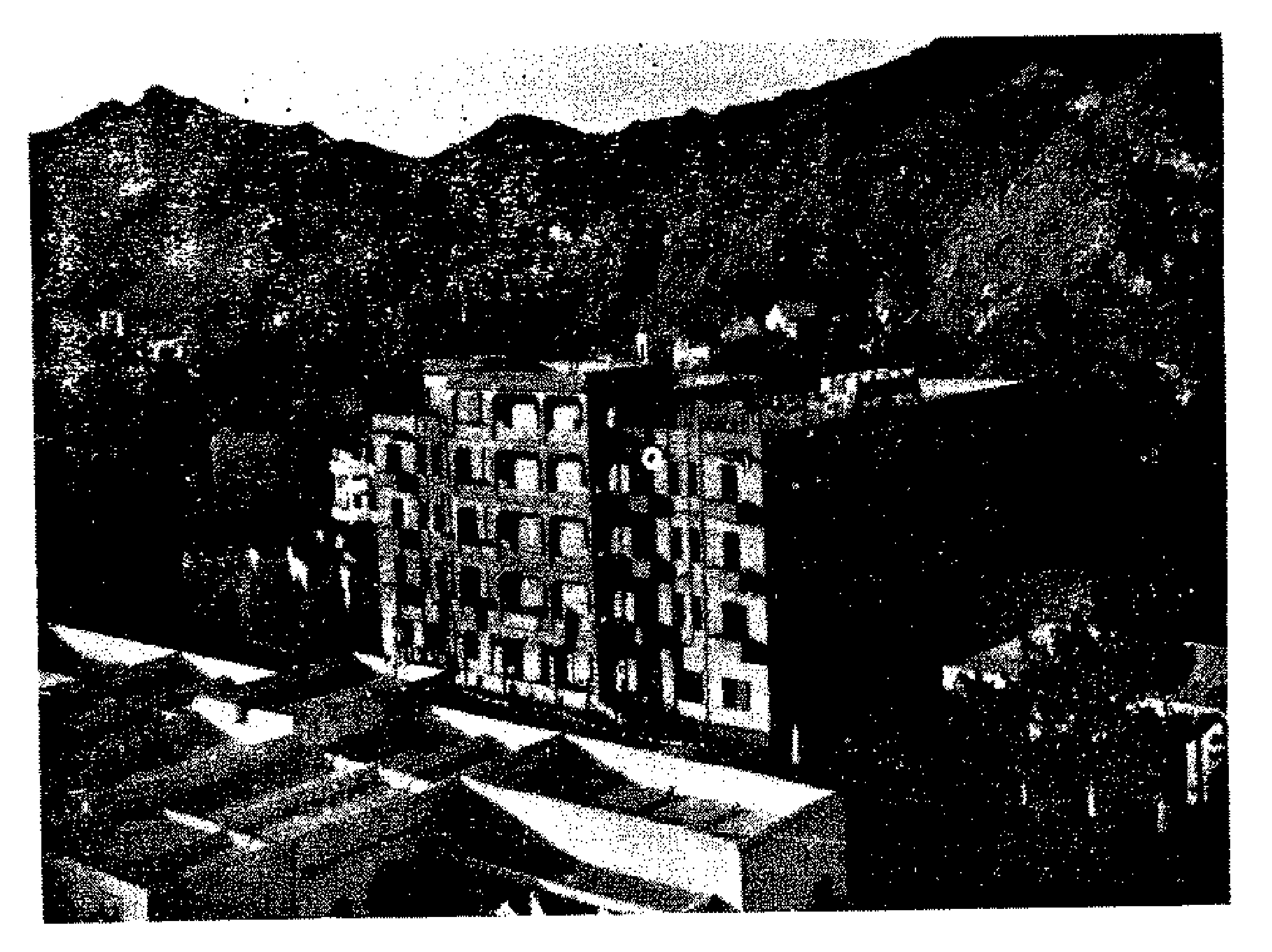
« إن جلالة الملك ابن سعود رجل عظيم . رجل عبقري ، هذا مـــا أوحته إليّ مطالعاتي الكثيرة ، وان ما رأيناه من جلالته البارحة أوحى إلي بأنه ملك عظيم ، سمح النفس ، كريم .

وهنا أقبلت السيارة التي ستنقله إلى جدة استعداداً للرحيل بمعيـــة الملك العربي العظيم إلى مصر فقمنا معه وودعناه » [1] .

---

(١) المقالات للاستاذ احمد عبد الغفور عطار طبعة ١٩٤٧ م صفحة ١٩٩ وما بعدهـــا .





في مكـة المكرمـة



في رحاب البيت العتيق



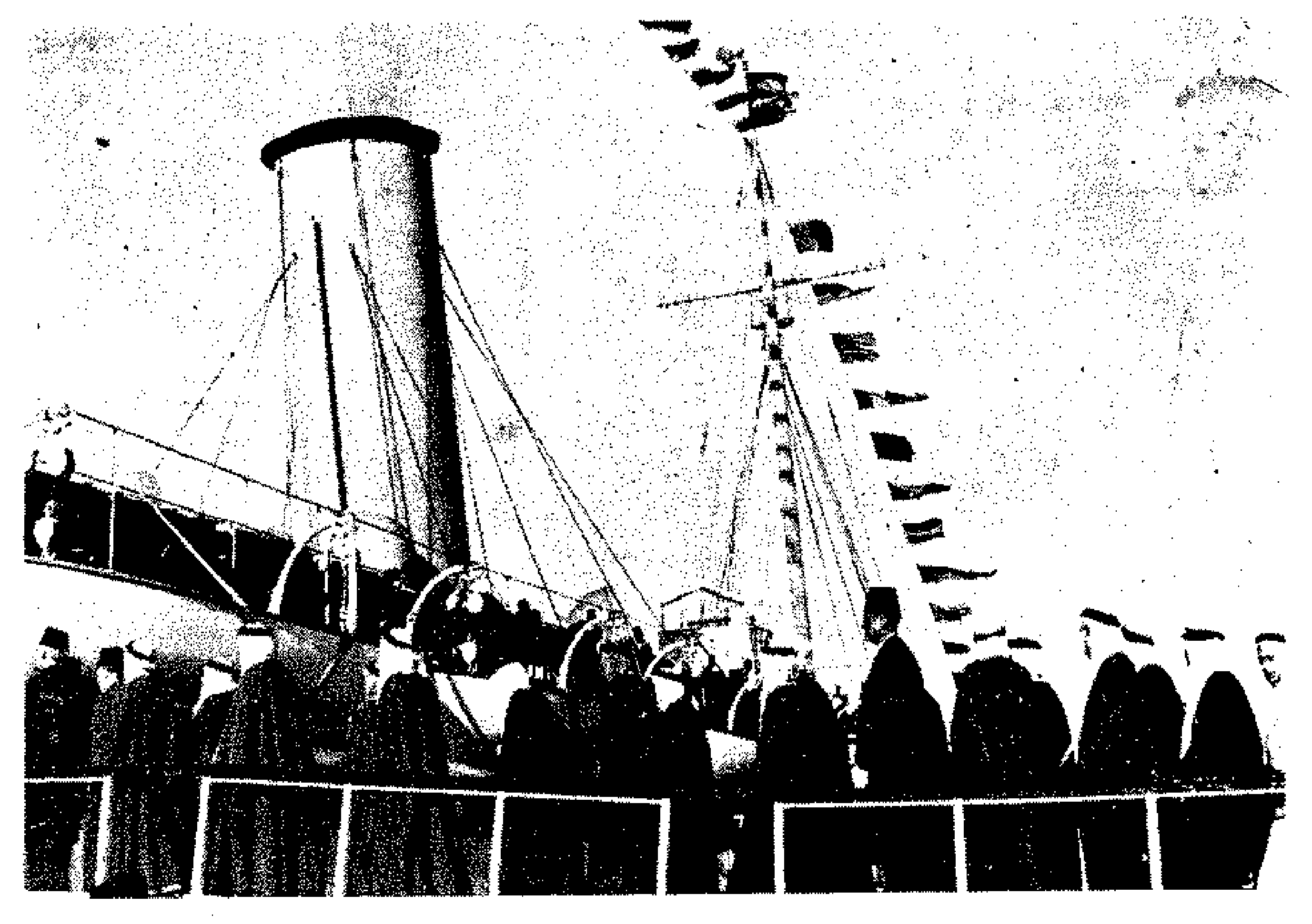
العقاد في بيت الله الحرام يؤدي فريضة الصلاة



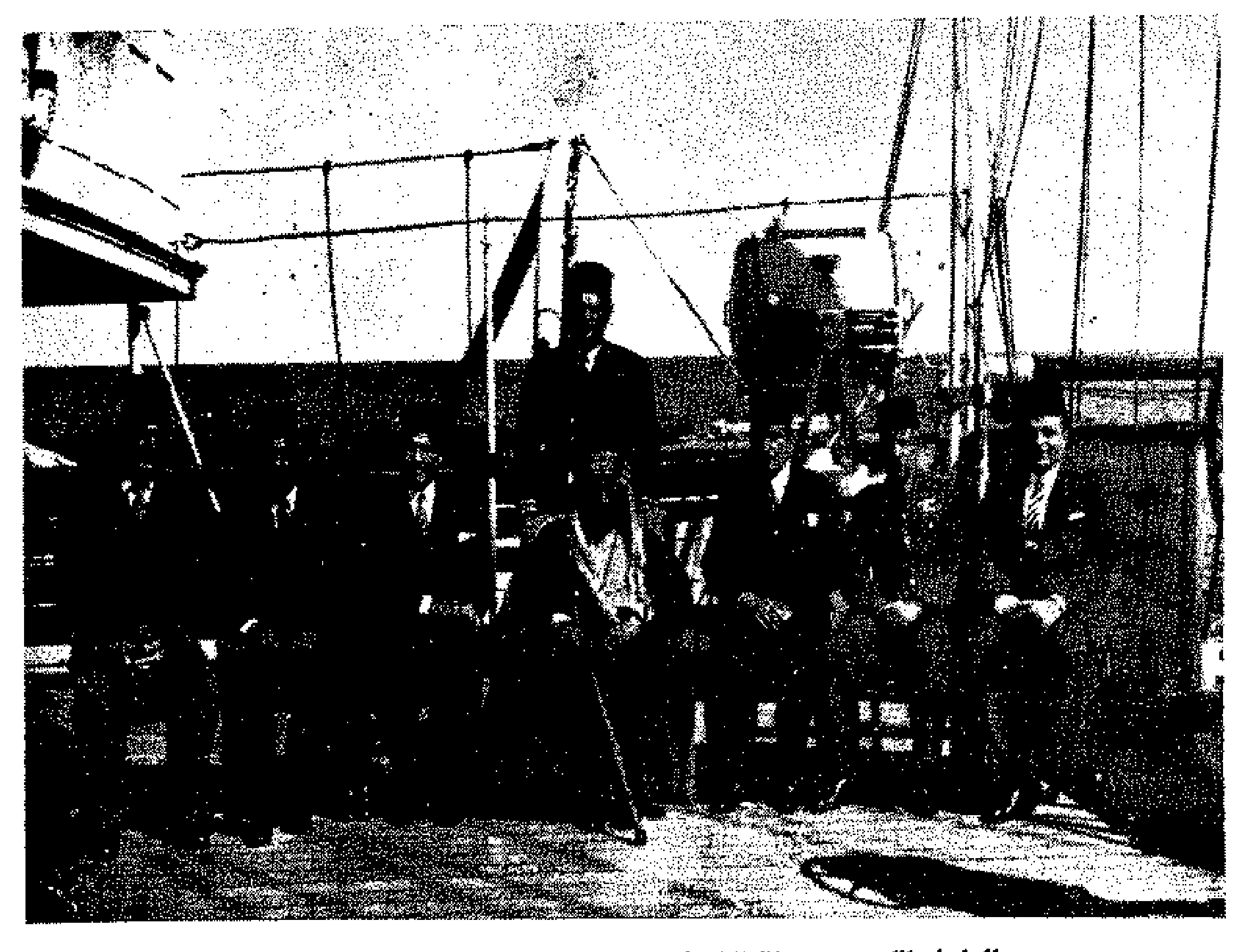
على مائدة الضيافة بجدة مع العاهل الراحل جلالة الملك عبد العزيز بن سعود



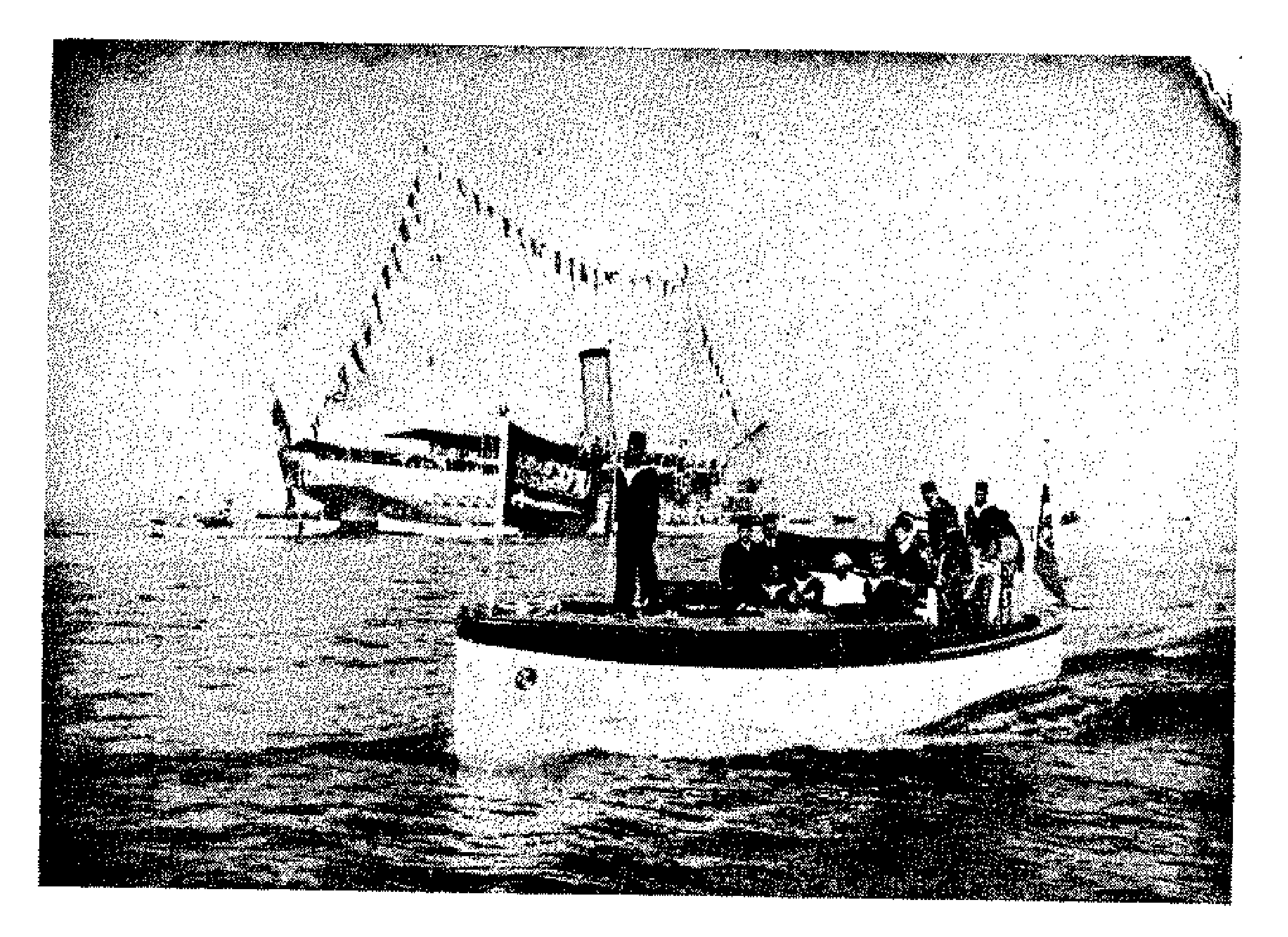
صورة على مائدة العاهل الراحل



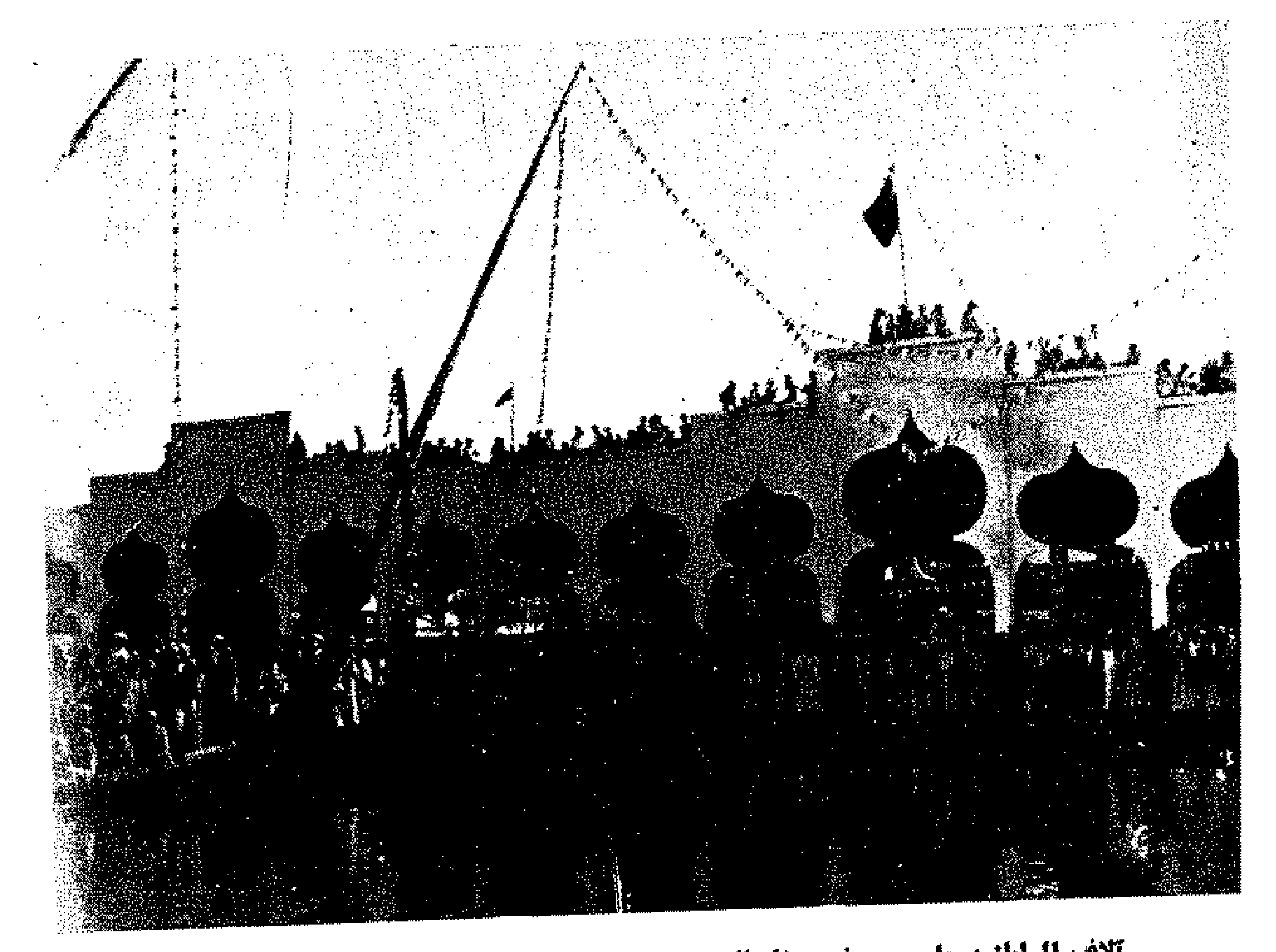
السادة اصحاب السمو الامراء يصعدون لليخت الذي سيقل الراحل لمصر ، ويرى الاستاذ العقاد بينهم



العاهل الكبير مع بعثة الشرف المصرية على ظهر اليخت خلال الرحلة



عند مدخل ميناء السويس ويرى علم المملكة ترفعه البحرية المصريـة على مقدمة لنشاتها



آلاف المواطنين على رصيف ميناء السويس في انتظار الزائر الكريم والعاهل العظيم



الضيف العظيم ينزل من اليخت الى ارض مصر بميناء السويس



على رصيف محطة القاهرة في انتظار وصول قطار العاهل الكبير قادما من السويس



ميدان محطة القاهرة والركب يشق طريقه لقصر عابدين

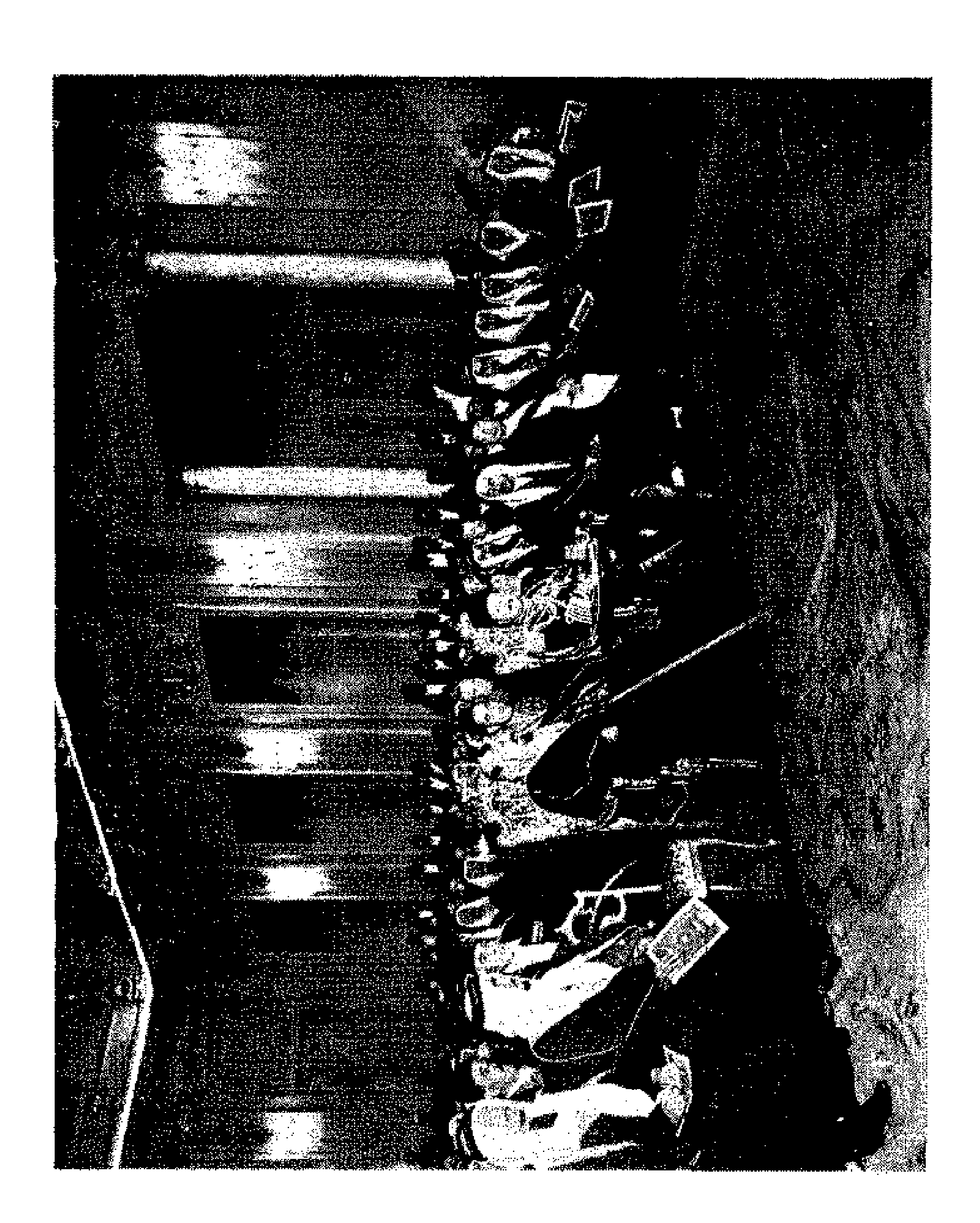


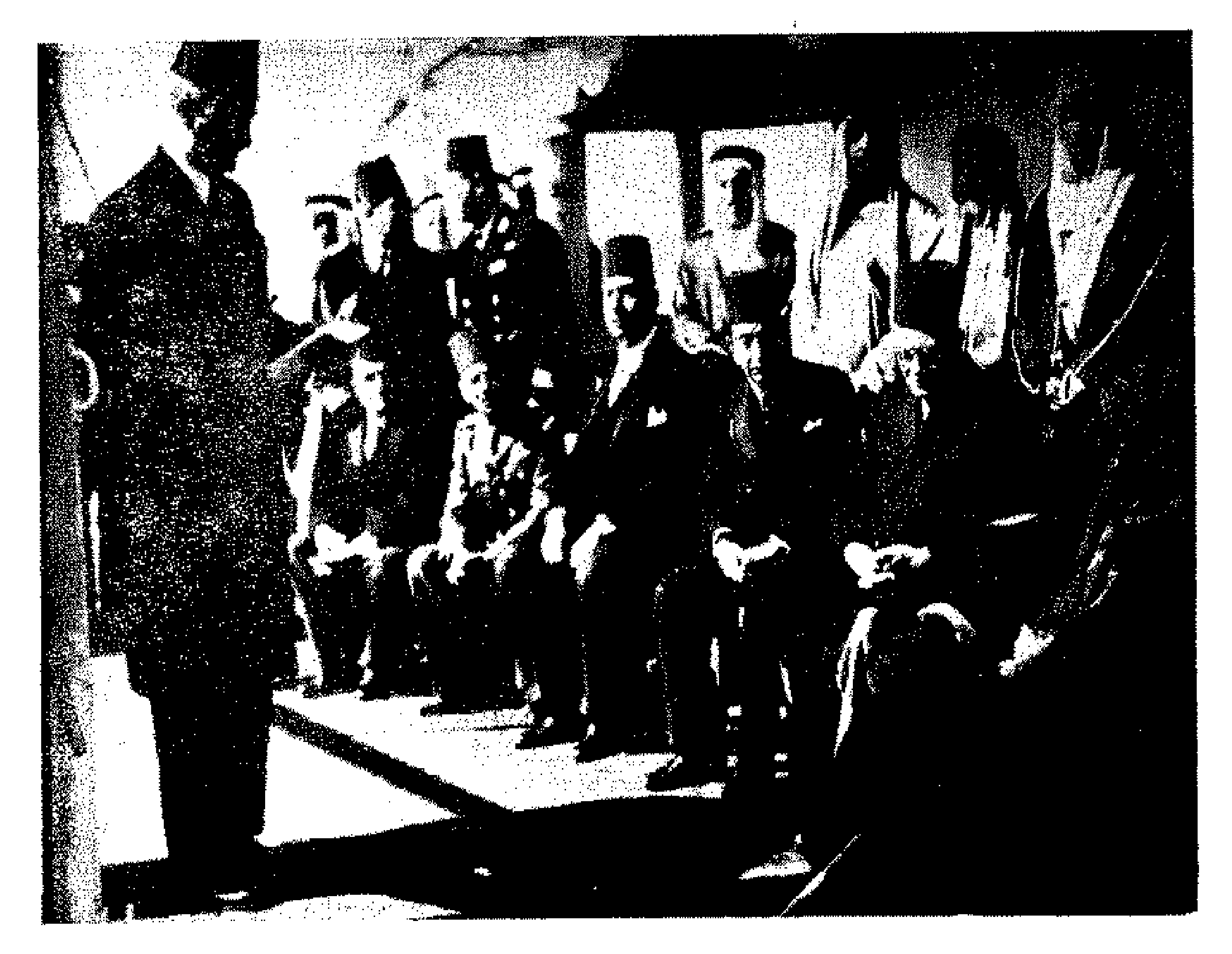
عند مدخل قصر عابدين وترى ثلاث طائرات تحلـق في سماء المنطقة تحيي العاهل الزائر



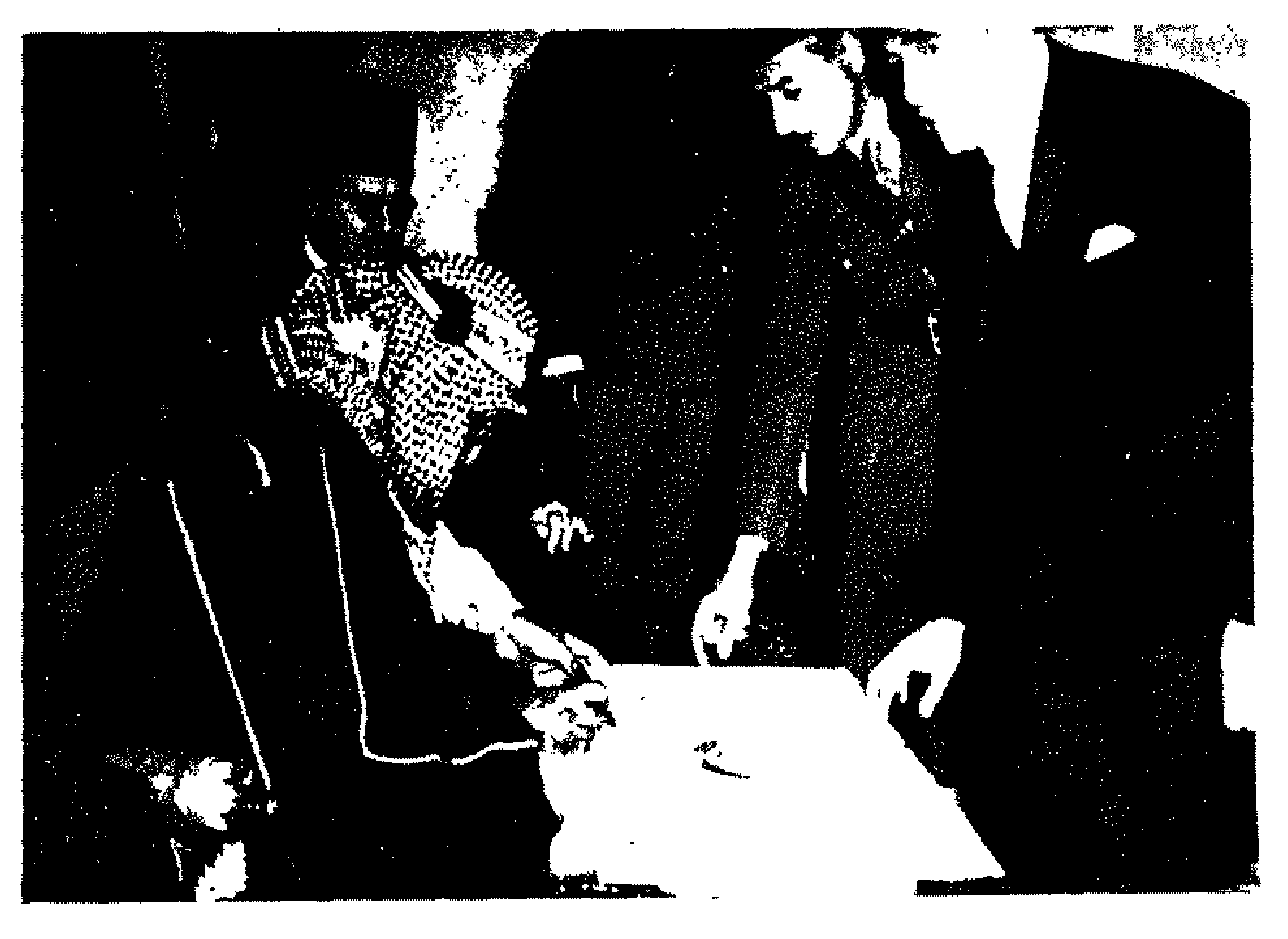
جلالة الملك عبد العزيز ينظر الى الشعب المصري الذي تعلوه الفرحة بمناسبة الزيارة الكريمة







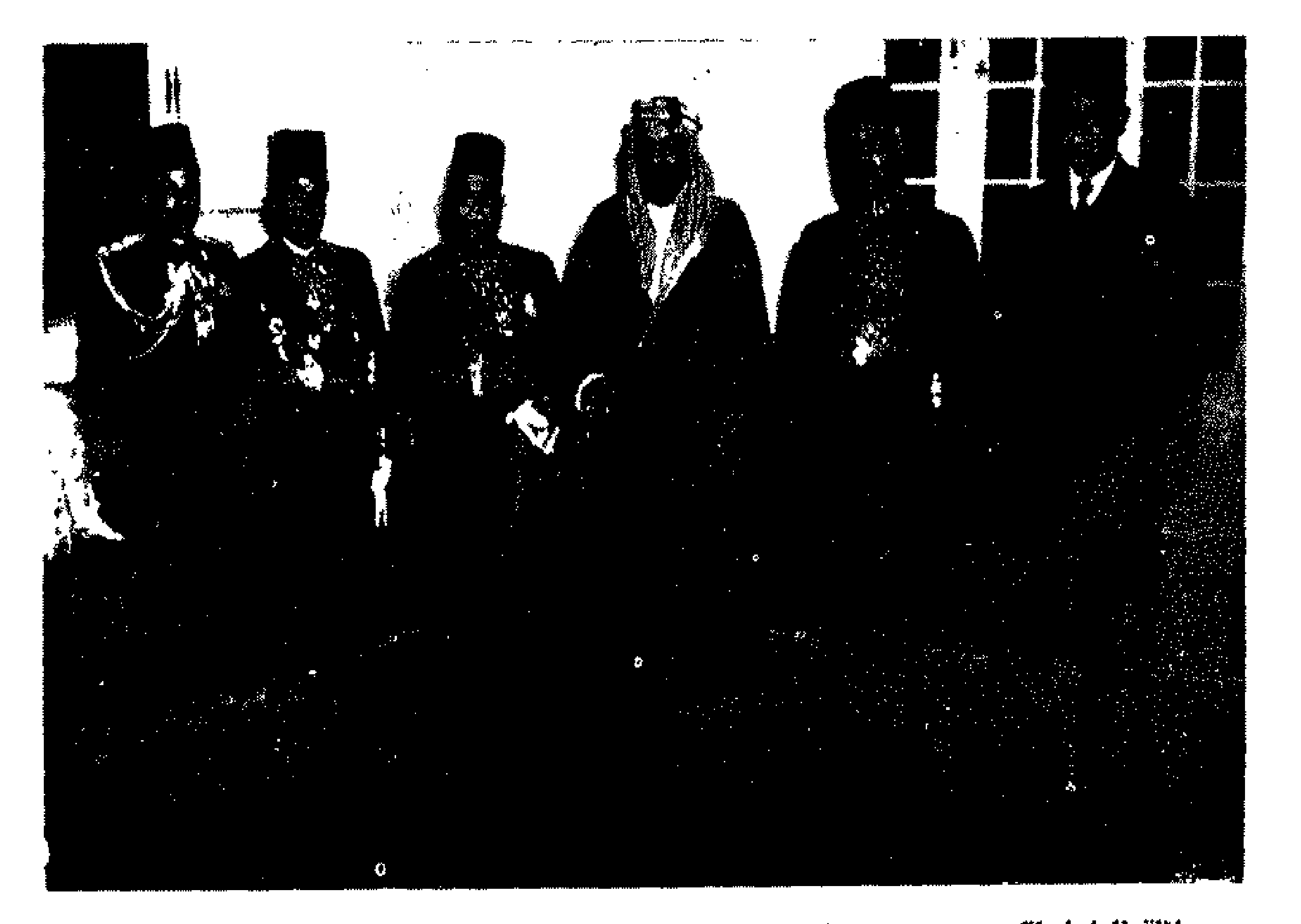
الاستاذ العقاد يلقي كلمة في حفل العشاء بوزارة الخارجية المصرية يرحب بالعاهل الكبير



العاهل الكبير يوقع بامضائه الكريم



احد رجال الحكومة المصرية يطبع قبلة على راحة العاهل الكبير خلال الزيارة، الكريمـة



جلالة العاهل الكبير مع بعض رجالات مصر الكبار ويرى الاستاذ العقاد على يسار العاهل الكبير



اصحاب السمو الامراء النجباء يتوسطهم دولة محمود فهمي النقراشي خلال الزيارة الكريمة في صحبة الضيف الكبير العاهل العظيم جلالة الملك عبد العزيز بن سعود

فهرس



العقاد كاتب مكثر ، متعدد الجوانب ، واسع الآفاق ، لم يدع شيئا مما يخطر على بال الاديب المفكر الا خاض فيه ، وتناوله بالدرس والبحث .

وهذا الكتاب يبرز لك جانبا من هذه الجوانب . فهو يصور العقاد رحالة يجوس خلال ديار طالما هفت روحه اليها ، وتاقت الى مقدساتها ، واعمل قلمه في الكتابة عن عباقرتها الذين اناروا الدنيا بعد ان سادها الظلام . ففي فترة من سنة ١٩٤٦ اتيح له الذهاب في وفد الى ارض الحجاز لمرافقه جلالة العاهل السعودي عبد العزيز آل سعود في زيارة قام بها لمصر .

وكانت تلك مناسبة لم يفت العقاد ان يغتنمها فاكب في مقالات متتالية على وصف مشاهداته واحياء ذكريات تاريخية وادبية حفلت بها تلك الارض المقدسة . وقد يسرت له تلك الرحلة الاتصال عن كثب بعاهل الجزيرة العربية ومجالسته ومحادثته فعرف كثيرا من مزاياه ، ووقف على سر عبقريته في بناء دولة وتأسيس ملك وطيد الاركان .


بيروت ص . ب . ٨٣٥٥ الثمن